الجامعة المستنصرية
كلية الاداب ـ الصباحي
قسم اللغة العربية

تفسير القرآن

الاستاذ
حبيب الراوي

الصفوف الاولى

مع اطيب تحيات الاتحاد الوطني لطلبة العراق / كلية الاداب

مكتب اطلس للطباعة •• بغداد •• شارع المتنبي ••

اسماء القرآن ومواردها واشتقاقها

١ — لقد ورد لفظ القرآن في عدد كبير من الآيات ، تتجاوز المئتين عدا ، واكثرها تشير الى أن المراد بالقرآن هو (كلام الله المنزل على نبيه محمد (ص) المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر) .

ولكن ذلك لم يحل بين المفسرين وعلماء اللغة وبين البحث عن أصل اللفظ وموارد اشتقاقه فذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة ، ولم يقتصر اختلافهم على معنى الكلمة بل تناول لفظها كذلك ، وفيما يلي اجمال لاهم تلك الآراء :—

آ — كان الاختلاف حول لفظ القرآن هل يكون مهموزا أم غير مهموز ، وكان رأي الشافعي وأكثر الاشعرية ان لفظ القرآن غير مهموز ، وذهب الشافعي الى القول بانه ليس مشتقا ولكنه اسم للقرآن كالتوراة والانجيل ، اما القراء والاشعري فقالا انه مشتق فقال الاول انه مشتق من القرائن ، مفردها قرينة اي ان آيات القرآن يشبه بعضها البعض الآخر ، فكل منها قرينة على الاخرى ، اما الاشعري فقال انه مشتق من الفعل قرن ، وقرن الشيء بالشيء اذا ضمه اليه لان السور والآيات يضم بعضها الى البعض ، وعلى هذا الرأي فسر أبو عبيدة قوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) اي تأليف بعضه الى بعض واورد قول عمرو بن كلثوم :—

ذراعي حرة ادماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

اي لم تضم في بطنها جنينا ، يقال للتي لم تحمل قط ، ومثل هذا الرأي منسوب الى ابن عباس كما اورده الراغب الاصفهاني في مفردات غريب القرآن في مادة قرأ .

ب — واما الرأي الآخر فان لفظ القرآن مهموز ، وهو مشتق على وزن غفران ورجحان واصله من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأ الماء في الحوض اي جمعه ، والقرآن قد جمع ثمرات الكتب السابقة بهذا المعنى ، وذلك هو رأي الزجاجي ، اما الحياني فيرى انه مشتق من قرأ بمعنى تلا سمي به القرء تسمية المفعول بالمصدر ، والقرء هنا هي ضم الحروف والكلمات بعضها الى البعض الآخر في الترتيل ، ولعل هذا الرأي اقرب الآراء الى الصواب .

٢ — وهناك رأي آخر بان لفظ (قرأ) بمعنى تلا منقول عن أصل آرامي وأخذ بهذا الرأي عدد من المستشرقين ، ذكرت آراءهم في مادة القرآن في دائرة المعارف الاسلامية

وهنا لابد لنا من القول بأن اللغات تتداخل بعضها مع البعض الآخر كلما دعت الحاجة وقوى الاتصال بين الشعوب التي تتكلم بتلك اللغات ، ومن هنا نجد في العربية عددا غير يسير من الالفاظ التي تنحدر من أصل سرياني أو آرامي أو فارسي أو هندي أو حبشي او نبطي ، وقد حاول الجواليقي استيعاب تلك الالفاظ في كتابه المعرب وضم اليها بعضا مما ورد في القرآن الكريم فمنها — الاستبرق والسندس والاباريق والفردوس والقسطاس والكافور والمسك وغيرها ...

وللقرآن اسماء كثيرة منها الكتاب (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) ومنها الفرقان لقوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) ومنها الذكر قال تعالى (وهذا ذكر مبارك انزلناه) ومنها التنزيل (وانه لتنزيل رب العالمين) وعد بعضهم أسماء القرآن خمسة وثلاثين وبلغ بها البعض الآخر نيفا وتسعين (١) .

أما كلمة المصحف فلم تكن تستعمل للدلالة على القرآن في عهد رسول الله وانما اطلقت عليه بعد وفاة الرسول ، وفي عهد الخليفة أبي بكر الصديق ، حيث طلب من الذين جمعوا القرآن ان يلتمسوا له اسما فاقترح بعضهم أن يسمى بالسفر ، وقال آخرون — المصحف ، وتحدث ابن مسعود — الصحابي المشهور بعلمه وورعه — انه رأى بالحبشية كتابا يدعونه المصحف ، فوافقوا على تسميته بهذا الاسم ، وكان أبو بكر الصديق اول من اخذ به (٢) كما نسبت تسميته بهذا الاسم الى سالم مولى حذيفة بن اليمان كما سنرى فيما بعد .

---

(١) نظر الاتقان للسيوطي ١/ ١٩٣ والبرهان للزركشي ١/ ١٧٣

(٢) معترك الاقران في اعجاز القرآن للسيوطي ١/ ٥٦

ظاهرة الوحـــــي

الوحي في اللغه هو الاباءه عما في النفس بغير المشافهه [١] وبهذا فهو يشمل الاشارة والكتابه والرساله والالهام والكلام الخفي او باية صورة يكون التعبير عما في النفس [٢] واوحيت اليه كلمته بما تخفيه عن غيره [٣] وتتضمن كلمة الوحي الاشارة السريعة [٤] سواء كانت الاشارة باليد او العين كقول الشاعر :ـ

ونوحي اليه باللحاظ سلامهـــا مخافـة واش حاضر ورقيب

ويأتي الوحي بمعنى الكتاب او الكتابه كقول الشاعر :ـ

ماهيج الشوق من أطلال درسة أضحت قفاراً كوحي خطة الواحي

اما ظاهرة الوحي الديني فقد عبر عنها ابن خلدون بقوله " انها الحالة التي ينسلخ فيها النبي من البشرية ليرتفع الى الملأ الاعلى في لمحة من اللمحات ليتلقى ما يتلقاه ثم يعود به الى المدارك البشرية ليبلغ للناس ما تلقاه" [٥] او " هو الكلمة الالهيه التي تلقى الى انبياء الله واوليائه على الوجوه التاليه :ـ

آ. أما برسول مشاهد يرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام

ب. بسماع من غير معينه كسماع موسى كلام الله تعالى

جـ. اما بالقاء في الروع كقوله عليه السلام " ان روح القدس نفث في روعي "

د. واما بالهام نحو " واوحينا الى ام موسى ..... "

هـ. واما بتسخير نحو " واوحى ربك الى النحل "

و. واما بمنام كما دل عليه حديث " انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن فالالهام والتسخير والمنام " [٦]

وفي القرآن الكريم اشارات متعدده لنزول الوحي على الرسول قوله تعالى على لسان نبيه " ان اتبع الا ما يوحى الي" . وقوله تعالى مخاطباً رسوله " قل إنما انا بشر مثلكم يوحى الي" " و " ان هو الا وحي يوحى "

---

(١) البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب ص ١٣٩
(٢) الصحاح للجوهري مادة " وحي "
(٣) اساس البلاغه للزمخشري مادة " وحي "
(٤) المفردات للراغب الاصبهاني مادة " وحي "
(٥) المقدمه ص ٩٨
(٦) انظر المفردات للراغب مادة " وحي "

واذا كان الرسول لا ينطق الا عن وحي من ربه ، فان ذلك يقتصر على امور الدين ، اما امور الدنيا فقد قال عنها في مسألة تأبير النخل ((انتم اعلم بامور دنياكم)) وحتى في اقضيته واحكامه كان يستلهم الحق من اقوال المتخاصمين لا من الوحي او الغيب يدلنا على ذلك قوله لبعض الذين اختصموا اليه في حقوق بينهم " لعل احدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر فمن قضيت له بشيء من حق اخيه فانما اقطع له قطعة من النار ، فالحن هنا التفطنه والقدرة على تصريف القول على وجوهه .

وقد كانت هنالك مسائل يريد الرسول ان يجد لها جوابا فينتظر الى الوحي ، مثال ذلك مسألة استقبال القبلة في الصلاة ، فقد ظل الرسول ينتظر اكثر من عام حتى نزلت عليه الآية " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام "(١) وفي حديث الافك ظل الرسول ينتظر الى وحي منه حتى نزلت الآيات " ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم "(٢)

لقد بدأ نزول الوحي على الرسول وهو في الاربعين من عمره — على ارجح الاقوال واستمر ثلاثة وعشرين عاما ، ولم يكن ثمة وقت معين لنزوله ، فقد يكون في الليل او النهار او اوقات السفر او الاقامة كما نجد تفاصيله في الكتب الخاصة بهذا الموضوع(٣)

وقد تطول الفترة او تقصر من فترات الوحي ، فاذا ابطأ الوحي شق ذلك على الرسول من ذلك الفترة التي سبقت نزول سورة الضحى(٤) ويرجح أن اول سورة نزلت هي "اقرأ باسم ربك الذي خلق " وان آخرها سورة براءة(٥)

ولقد نزل الوحي على الرسول بانباء الامم الغابرة والرسل الذين سبقوه فتحدث عن أهل مدين وقوم عاد وثمود ووصف ولادة المسيح وقصة يوسف واخوته وغيرها كما تحدث عن المستقبل حين اشار الى ان سنوات من القحط سوف تأتي على أهل مكة حيث يقول تعالى "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم " كما يشير الى انتصار الروم في قوله تعالى " غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين " كما اشار الى هزيمة المشركين في قوله تعالى

---

(١) انظر اسباب النزول للسيوطي ، والقرآن الكريم في سورة البقرة الاية ١٤٤

(٢) سورة النور — الآية الحادية عشرة وما بعدها وعدد عشر ايات

(٣) الاتقان من ١٨ — ٢٣

(٤) اقرأ تفسير سورة الضحى للطبري

(٥) البرهان — للزركشي ٢٠٦ — ٢١٠

" سيهزم الجمع ويولون الدبر " وقد تحقق ذلك في السنة الثانية للهجرة في موقعة بدر الكبرى (١)

وقد ينزل الوحي على الرسول بعتاب او تقريع او انذار او تهديد فحين اذن لفريق من المسلمين في التخلف عن القتال في غزوة تبوك انزلت عليه الاية " عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " وحين اشار اصحاب الرسول عليه أخذ الفداء من الاسرى الذين وقعوا بايديهم في موقعة بدر رغبة في الحصول على عرض الحياة الدنيا ، نزلت الآية " وما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة " وفي معرض الانذار والتهديد يقول تعالى " ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين "

وقد حاول خصوم النبي أن يتخذوا من ظاهرة الوحي وسيلة للطعن في رسالته فاتهموه باقوالهم الباطلة ، وقد اشار القرآن في مواضع عدة الى تلك الاتهامات منها قولهم على لسانهم " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر " وقالوا " معلم مجنون " وان الوحي الذي ينزل عليه ما هو الا " أساطير الاولين " ولكن الله تحداهم ان يأتوا بحديث مثله او ان يأتوا بعشر سور مثله ، وفي الاخير ان يأتوا بسورة واحدة (فأتوا بسورة من مثله) وكان قوله تعالى هو الفصل " قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا "

تنجيم القرآن

قال تعالى " شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن (٢) وقال " انا انزلناه في ليلة القدر (٣) وهذا يعني بداية نزول القرآن في تلك الليلة وليس في الايتين تعارض ، فليلة القدر هي احدى ليالي رمضان ، وهي الليلة المباركة التي عناها تعالى بقوله " انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين (٤) " واستمر نزوله بعد ذلك منجما في ثلاث وعشرين سنة وقيل عشرين وقيل خمس وعشرين (٥) ، وقد اطال بعض العلماء في القول في كيفية نزوله

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٣٤ — ٣٥
(٢) سورة البقرة — ١٨٥
(٣) القدر — ١
(٤) الدخان — ٣
(٥) الاتقان — ٣١

ونسأل هل نزل جملة واحدة ، وللاجابة على هذا السؤال نقول — ان الاجماع منعقد على ان القرآن لم ينزل على الرسول جملة واحدة ، وانما نزل في اوقات متفرقة ، فربما نزلت خمس آيات جملة واحدة ، وقد تنزل عشر آيات جملة واحدة كما حدث في قصة الافك وسورة المؤمنين ، كما قد ينتزل على الرسول جزء من من آية كقوله " غير اولى الضرر[1] وهي بعض آية ، وكقوله " وان خفتم عيلة[2] وهي جزء من آية ايضا . واذا كان نزول القرآن منجما فما هي الحكمة في ذلك ، يقول احد الكتاب المعاصرين " ولتجاوب الوحي مع الرسول صورتان ، احداهما — تثبيت فؤاده بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حادثة . والثانية " تيسير حفظ القرآن عليه[3] ، ونجد الاشارة في احدى الايات الى سبب نزول القرآن منجما على الرسول حيث يقول تعالى " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة كذلك لنثبت به فؤادك[4] " اى انزلناه مفرقا لنقوى قلبك ، بتجدده وكثرة نزوله .

وهنالك وجه آخر هو ان نزول القرآن مفرقا ادعى الى قبوله بخلاف ما لو نزل جملة واحدة حيث كان من الممكن ألا يتقبل الناس كل ما فيه من الاوامر والنواهي ، ومما ينسب الى عائشة قولها ان أول ما انزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء " لا تشربوا الخمر " لقالوا لا ندع الخمر ... ثم رأيت هذه الحكمة مصرحا بها في الناسخ والمنسوخ وهكذا كان القرآن ينزل بحسب الحاجة — آية واحدة او عدة آيات او جزء من الآية كما ذكرنا .

واذا كان لنا أن نفصل القول في بيان اسباب تنجيم القرآن ، فقد ذكرنا ان الله سبحانه وتعالى أراد بذلك ان يثبت فؤاد النبي ، فهو كغيره من الانبياء لابد له من مجابهة الشدائد ومقابلة الصعاب في دعوته ، ولقد قاسى أولئك الانبياء قبله من المحن ما قاسوه ، فنزول الوحي عليه بين الفينة والفينة مما يقوى عزيمته ويشد أزره ، وعلى العكس فان انقطاع الوحي عنه لفترة طالت او قصرت كان يبعث في نفسه الحيرة والقلق واليأس من ذلك ان الوحي قد ابطأ على الرسول فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة

---

(١) النساء — ٩٥

(٢) التوبة — ٢٨ ، والعيلة — الفقر

(٣) مباحث في علوم القرآن ٤٦

(٤) سورة الفرقان — ٣٢

اني اري ربك قد قلاك مما يرى من جزعك ، فنزلت عليه سورة الضحى ، وزال ما به من هم[١]

وفي معرض القول عن انباء الرسل تثبيت لفؤاد النبي حيث يقول تعالى " وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك "[٢]

فقد كانت الآيات تنزل عليه ، تحثه على الصبر كما صبر الرسل من قبله " فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل "[٣] وحين يشتد الحزن عليه نفسه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت حيث يرى قومه في ضلال ، يتقولون عليه الاقاويل ، ويلصقون به التهم اذ تنزل عليه الآية " فلا يحزنك قولهم " فيرى فيها عزاء وسلوة ، ويجد فيها ما يجعل عزيمته اكثر مضاء ، وهمته اقوى على اداء الرسالة ، وتتكرر الآيات بهذا المعنى كلما استشعر بشيء من الوهن او احس بشيء من الحزن ، فيقول له تعالى " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات "[٥] و ((لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث))[٦]

وهكذا فقد كان الرسول يجد تسلية في الحديث عن الرسل الذين سبقوه ، ومعلوم ان عددا كبيرا من الرسل قد ذكرت اخبارهم في القرآن ، وفيها عبر ومواعظ لا الى الرسول وحده ، ولكن الى اولئك الاقوام الذين ارسل اليهم ، ليروا كيف اهلك الله الذين لم يستمعوا الى اقوال رسله وكيف انزل بهم العذاب .

وقد ذكرنا أن لتجاوب الوحي مع الرسول صورة اخرى هي تيسير حفظ القرآن له ، ارجع القرآن حفظا في قلبه ، ذلك انه كان اميا لا يقرأ ولا يكتب ، فشق القرآن لينسر عليه حفظه[٧] .

ونعود مرة اخرى الى ما روى عن السيدة عائشة فيما يتعلق بنزول القرآن مفرقا والحكمة في ذلك ، فهناك امور حربها الله بصورة قاطعة ومن غير تدرج ، ومثال ذلك القتل والسرقة والكذب ، والزنا والى جانبها كانت هنالك عادات مستحكمة في النفوس

---

(١) اسباب النزول للسيوطي (على هامش الجلالين) ص ٨٠٥ وانظر الروايات الكثيرة التي اوردها الطبري في تفسيره لسورة الضحى

(٢) هود — ١٢٠

(٣) الاحقاف — ٣٥

(٤) يس — ٧٥

(٥) فاطر — ٨

(٦) الكهف — ٦

(٧) البرهان — ٢٣١

كاد مان الخمرة ، فقد تدرجت الآيات في تحريمها وأول ما نزل في ذلك قوله تعالى "يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما"(١) ثم نزلت الآية الاخرى ((يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون))(٢) وبعدها نزلت الآية ((يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون))(٣)

ولو ان القرآن أنزل دفعة جملة واحدة ، وفيه الكثير من المحرمات ، لكان من الصعوبة ازالتها معاً ، ومن ذلك العصبية القبلية التي لم يتخل العرب عنها الا بعد ان تمكن الاسلام من نفوسهم وفي ذلك يقول تعالى ((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير))(٤) . ومن كل ذلك تبدو الحكمة واضحة من نزول القرآن منجماً في فترات متقطعة من الزمن ولم ينزل جملة واحدة .

---

(١) البقرة ـ ٢١٩
(٢) النساء ـ ٤٣
(٣) المائدة ـ ٩٠ ، ٩١
(٤) الحجرات ـ ١٣

المكـــي والمدنـــــي

١ـ اصطلاح المكي والمدني /ـ

نشأ الرسول في مكة وقد أوحي اليه حين بلغ الاربعين من عمره ، وأقام فيهـــا ثلاثة عشر عاما بعد بعثته ، ثم هاجر الى المدينة وأقام بها عشرة أعوام ثم توفاه الله (١) ومن هنا انقسمت حياته الى مرحلتين /ـ المرحلة المكية والمرحلة المدنية وتبعا لذلك حملت السور والآيات التقسيم نفسه ، وفي ذلك اراء ثلاثة (٢) .

الاول /ـ أن المكي ما نزل بمكة أو احدى ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية والمدني ما نزل بالمدينة أو احدى ضواحيها كالمنزل ببدر واحد وسلع .

الثاني /ـ وهو المشهور أن المكي ما نزل قبل الهجرة وان كان بالمدينة ، وان المدني ما نزل بعد الهجرة وان كان بمكة .

الثالث /ـ أن المكي ماوقع خطابا لاهل مكة والمدني ماوقع خطابا لاهل المدينة ويغلب على الاول قوله تعالى (يا ايها الناس) وعلى الثاني (يا ايها الذين آمنـــوا) كما ينصب على السور المكية ذكر القرون الماضية والامم والعذاب ، أما السور المدنيـــة فيغلب عليها ذكر الحدود والفرائض ، كان مجموع ما نزل بمكة خمسا وثمانين سورة ، وما نزل بالمدينة تسعا وعشرين مع اختلاف حول بعض السور كالفاتحة ، حيث عدها بعضهم مكيـــة وعدها الاخرون مدنيـــة .

ومن الآيات التي نزلت بمكة وحكمها مدني قوله تعالى (يا ايها الناس انا خلقناكـــم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليـــم خبير) (٣) والايات في سورة المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم) الى قوله تعالـــــى (الخاسرين) (٤)

أما سورة الممتحنة وسورة الرعد والاية (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولاجر الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فقد نزلت بمكة ولكن حكمها مدني (٥) ويرى القاضي ابو بكر في كتابه (الانتصار) انه لم يؤثر عن الرسول بيان أو تحديد للسور والايـــات

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢ .
(٢) البرهان ١/ ١٨٧ والاتقان ١/ ٩
(٣) الحجرات ١٣ .
(٤) المائدة ٣ .

المكية والمدنية ، ولم تكن معرفة المكي والمدني فرضا على الامة ، وانما كانت واجبا على اصحاب العلم لمعرفة الناسخ والمنسوخ ، ولم يؤثر عن اصحاب رسول الله رضي الله عنهم اعتبار معرفة هذا العلم فرضا كذلك ، لذا اختلفت الآراء في تحديد المكي والمدني ، ومن هنا جاز بالرأي والاجتهاد الى جانب النقل (١) .

ولعل أبا القاسم النيسابوري كان اكثر عناية بالمكي والمدني ففي كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) قد عد علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداء وتوسطا وانتهاء وما نزل بالمدينة كذلك من اشرف علوم القرآن وفي كتابه هذا يتحدث عما نزل بمكة وحكمه مدني وبما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة .. ثم ما نزل بالمواقع الاخرى كالطائف والحديبية والجحفة ... وما نزل ليلا او نهارا ... وما حمل من مكة الى المدينة أو من المدينة الى مكة او ارض الحبشة وما نزل مفسرا وما اختلفوا فيه (٢) . وهذا لك من السور المكية ما الحقت بها آيات مدنية وسور مدنية الحقت بها آيات مكية وسميت (آيات مستثناة) وكان الاعتماد في ذلك على الاجتهاد دون النقل (٣) .

ب - التقسيم الزمني في رأي النيسابوري /

التزم أبو القاسم النيسابوري بالمنهج التاريخي الزمني في ترتيب المكي والمدني ، ومن هنا تم تقسيم السور المكية والمدنية الى مراحل ثلاث / ابتدائية ومتوسطة وخاتمية ، ويمكن تحديد تلك المراحل عن طريق النقل أو عن طريق القياس والاجتهاد ، وقد كان من السور المكية التي نزلت في أوائل الوحي / ـ العلق والاعلى والليل والشرح والعاديات والتكاثر والنجم .

ومن المرحلة المكية المتوسطة عبس والتين والقارعة والقيامة والمرسلات والبلد والحجر .

ومن المرحلة المكية الخاتمية ، الصافات والزخرف والذاريات والكهف وابراهيم والسجدة وكل زمرة من هذه الزمر الثلاث لها سماتها ومميزاتها الواضحة حتى لتبدو وكأنها وحدة قائمة بذاتها رغم الاختلافات اليسيرة بين سورة وأخرى من حيث الفكرة او الاسلوب .

---

(١) البرهان ١/ ١٩١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الاتقان ١/ ١٤ .

٣- المراحل المكية

ففي سورة العلق اشارة الى النبوة التي ارسل بها رسوله محمدا وانصافه بالملأ الاعلى والقراءة باسم الله الذي كرم الانسان بان علمه ما لم يكن يعلم من قبل ، وتأكيد من استعمال القلم الذي هو رمز العلم والتعلم وفي سورة التكوير تصوير ليوم القيامة حيث تبدد الشمس وتنطفئ شعلتها وتتناثر النجوم وتنسف الجبال ، وتهمل العشار اي النوق الحبالى من شدة الهول والفزع وتتجمع الوحوش الشاردة في الغاب منضمة بعضها الى بعض وتلتهب البحار بالنيران وتفيض بالحمم وتسأل الموءودة عن وادها عن سبب وأدها ثم تنشر صحف الناس لتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت ثم تسمع القسم بالكواكب التي تجري في مسارها للتوارى عن الانظار مرة أخرى ، وبالليل اذا اظلم والصبح اذا أضاء حتى يصير نهارا ، ان ما ورد هو قول رسول يستمد الوحي من به ، يحمله اليه ملك كريم ، يحمل الامانة من السماء الى الارض وهو مطاع من الملائكة في الملأ الاعلى ، أمين على الرسالة التي يبلغها ، ثم يفند مزاعم المشركين من انه قول شيطان رجيم بل وحي تلقاه الرسول الذي لا يتهم في امانته او عقله وانها رسالة ليست موجهة اليهم وحدهم ، بل انها للعالمين كافة ، وان ارادة الله فوق كل ارادة او قوة (١) .

٤- مؤدى المرحلة المكية الاولى

ولو استقصينا سائر السور التي نزلت في المرحلة المكية لوجدنا كلها تتحدث عن الوحي والدين ، ووصف قدرة الله ، وخلق الكون ، وتصوير يوم القيامة ، وتأكيد فكرة العقاب والثواب ، وحث النبي على الصبر والمضي في رسالته ، وتذكيره بما لقيه الانبياء السابقون من عنف الاذى والاشارة الى أن الدين للناس جميعا لا لفئة منهم دون الاخرى ، هذا من حيث مضمون تلك السور ، أما ألفاظها وأساليبها فقد كثر فيها القسم بمشاهد الكون ومخلوقاته كما اقسم بنفسه وبالقرآن (٢) . كما ان صيغ الانشاء من أمر ونهي واستفهام وتمنٍّ وجاءت مبثوثة في كثير من اجزائها ، وفي الفاظها تناسق وايقاع ، وفواصلها موزونة مقفاة ، يتناسب ايقاعها مع المواقف ويمنح الحركة والحياة على الاشياء الجامدة ويشخص المعنويات كما يحيل المشاهد الى لوحات فنية رائعة (٣) .

---

(١) انظر تفسير النسفي لسورة العلق .

(٢) الاتقان ٢/ ١٣٣ وقد الف في هذا الموضوع ابن القيم كتابا سماه (التبيان والقصد بالقسم) .

(٣) مباحث في علوم القرآن ٢١٥ - ٢١٧ .

٥- مزايا المرحلة المكية الثانية

وفي سورة القيامة التي هي احدى سور المرحلة المكية المتوسطة ، استهلال بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن الله قادر على اعادة تكوين الانسان مرة أخرى بكل دقة ، ولكن هذا الانسان يريد أن يستمر على فجوره حين يسأل عن ميعاد يوم القيامة ، فهنالك حيث يبرق البصر من حيرته وفزعه ويخسف القمر وتقرن الشمس بالقمر وعندئذ يطلب الانسان الفرار حيث لا ملجأ له ، ولكنه سيصير الى أمر ربه حيث ينبأ بما عمل وما لم يعمل ، وسيكون شاهدا على نفسه ولو جاء بكل معذرة ، وبعد الدعوة الى أخذ القرآن بالتأني وجمعه وقرآنه يخاطب البشر مذكرا عليهم حبهم للدنيا وايثارها على الآخرة هناك حيث تكون وجوه المؤمنين حسنة ناضرة الى ربها ووجوه الكافرين كالحة عابسة ، تتوقع أن تنزل بها الداهية ، فيبلغ بها الخوف أشده ، تتساءل عن الرحمة ، وطاف به ما يضيف بالمحتضر الذي يفارق دنياه المحبوبة له ، فاستشعر بالشدة والهول ، وعندئذ يساق الجميع أمام ربهم فيسأل لمن لم يصدق بالرسول وبالقرآن ، بل اعرض عن الايمان ، واطلاقا نفسه كبرياء وغرورا أيظن أن لن يحاسب على أعماله ؟ ألم يعلم انه كان نطفة قصار علقة ثم جامدة ثم أسوى انسانا سويا وجعل من الزوجين الذكر والانثى ، ألا يدل ذلك على أن الله قادر على أن يحيي الموتى (١) ؟

وعند مقارنة هذه السور وغيرها من سور المرحلة المكية المتوسطة نجد الشبه واضحا بينها وبين سورة المرحلة المكية الاولى من حيث الخصائص في موضوعاتها وأساليبها وما فيها من ابتداع وفن عجيب والوان ،

ولكننا نلمح في كل سورة من السور حقائق جديدة وعقائد جديدة تجعل لكل سورة سماتها الخاصة اضافة الى السمات المشتركة بين سور كل من المرحلتين حيث تصبح السور أطول من السابقة ، وإذا كانت الموضوعات التي عالجتها المرحلتان لم تتغير كثيرا ، فيمكن القول أن هذه المرحلة المكية المتوسطة قد وسعت نطاق تلك الموضوعات وفصلت جزئياتها والقت الضوء ساطعا على معالمها ، ففيها تذكير بالامم التي هلكت والقرى الظالمة التي أبادها الله فدمرت تدميرا ، ومشاهد البعث والنشور وصور مثيرة للجنة وما فيها من الوان النعيم والجحيم وما فيها من الوان العذاب والسور في كثير من اجزائها تدعو الى اعمال الفكر والتأمل بما أبدعه من مخلوقات ، وما أوجده من كائنات للاستدلال على وجوده ،

---

(١) انظر تفسير النسفي لسورة القيامة وكذلك الكشاف للزمخشري .

ووحدانيته والايمان بالوحي والبعث والنشور وفي كلتا المرحلتين نجد الايقاع قويا والالفاظ مختارة والاسلوب مؤثرا ينهد الغافلين ويمضي بهم الى طريق الصواب (١) .

٦ — مزايا المرحلة المكية الثالثة

ثم تنتهي الى المرحلة الثالثة والاخيرة من المرحلة المكية حيث تتسع السور والايات اطول من سابقاتها ويلاحظ ذلك في السور بخاصة قبل الايات ، ومع ذلك فان السور سوف تتدرج في الطول حتى تبلغ غايتها في المرحلة المدنية لا سيما في المرحلة الاخيرة وفي سورة البقرة التي بلغ عدد آياتها مائتين وستا وثمانين آية ، وهي اطول سورة في القرآن ، ولعل الظروف التي احاطت بتلك السور المكية كان لها اثرها في الطول والقصر وفي التفصيل او الايجاز ، وقد يكون ما عرف عن اهل مكة من فصاحة وبلاغة جعلهم يألفون الايحاء والاشارة الخفية والعبارة الموجزة ، كما يظهر واضحا في السور والايات المكية (٢) .

ولنأخذ سورة الكهف نموذجا لسور المرحلة المكية الاخيرة ، حيث تستهل بالحمد لله كما استهلت قبلها سورتان : الفاتحة والانعام وبعدها سورتان هما سبأ وفاطر وفي هذه السور محاولة لوضع حد لضلال قديم ألم الناس وهو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين ان ما على الارض من زينة ونعم مادية ، انما كان طريقا لاختبار الناس أيكفرون أم يشكرون وفي سبيل ذلك تقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة في تقدير الحق بذاته لا بالمال او الجاه وهي قصة اصحاب الكهف التي تصور التضحية بالنفس في سبيل العقيدة وقصة موسى والعبد الصالح وهي قصة التواضع والتطلع الى العلم دون كبرياء او غرور ، وقصة ذي القرنين التي ترمز الى العدل واغاثة الضعفاء واصلاح الامور (٣) .

وفي هذه السور يبدو وضوح القصة في القرآن الكريم للغرض الديني ، ففي اولها انذار لمن قالوا (اتخذ الله محمدا ولدا) وفي نهايتها اشارة الى أن محمدا بشر كسائر الناس ، ولكنه يتلقى امره بالوحي ، وفي خضم القصة تسمع أصوات أهل الكهف (ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) (٤) ومثل هذا القول يتردد على لسان العبد الصالح لموسى وعلى لسان الملأ من بني اسرائيل لصاحب الجنتين .

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٢١٧ .
(٢) مباحث في علوم القرآن ص ٢٣٣ .
(٣) مباحث في علوم القرآن ص ٢٣٥ .
(٤) الآية ١٤ .

وتشير قصة الكهف الى اولئك الفتية الذين ضرب الله على آذانهم أكثر من ثلاثمائة قرون وهم نائمون وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد والشمس تتجافى عنهم ، حتى اذن الله لهم ان يستيقظوا من رقدتهم متسائلين عن مدة لبثهم وقد ظنوا انه يوم او بعض يوم ، ثم يغادر احدهم الكهف حاملا ما بقي من نقود فضة ليشترى لهم طعاما طيبا يسدون به رمقهم ، وينصحونه بالحذر من المشركين لئلا يعرفوا مخبأهم فيقتلوهم رجما او يردوهم عن عبادة الله ، ولكن أهل المدينة يعرفونهم ، وقد آمنوا ، فيتلقونهم بكل حفاوة وتكريم ، ثم ينوسى اصحاب الكهف بأجالهم ، فيكرمهم مواطنوهم ببناء مسجد فوق اضرحتهم .

اما قصة النبي موسى مع العبد الصالح الذى لم يذكر القرآن اسمه ، وقال المفسرون انه الخضر عليه السلام الذى اتاه الله العلم ، وقد طلب منه النبي موسى أن يتبعه ليأخذ عنه العلم فتردد العبد الصالح في قبوله لانه لن يطيق معه صبرا ، ولكنه ابلغه انه سيجده صابرا مطيعا لاوامره ، فوضى بذلك على الا يسأل موسى عن اى شيء يعمله هذا العبد الصالح ، ولكنه لم يطق على ذلك صبرا حين ركبا سفينة فخرقها ، وساله عن السبب ، ثم لقيا غلاما فقتله ، وسأله مرة اخرى عن السبب ، ثم مارا حتى دخلا قرية فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فبناه واقامه ثم عاد موسى يسأل عن السبب مرة اخرى ، وهنا ابلغه العبد الصالح ان هذا فراق بينهما وانه سيبلغه ويخبره عما سأل قبل أن يفترقا وقد فعل (١) .

اما قصة ذى القرنين الذى مكنه الله في الارض حتى بلغ اقصاها ووجد قوما هنالك فاقام العدل بينهم بأن عاقب المسيء واثاب المحسن ، ثم سار في طريقه حتى بلغ قوما لا يكادون يفقهون قولا ، وشكوا اليه من امر يأجوج ومأجوج طالبين منه أن يضع سدا بين القومين ، ففعل بمعونتهم وحال بينهم وبين ايقاع الظلم والعدوان على هؤلاء القوم وهكذا تكون قصتهم رمزا للعدل واحقاق الحق .

وضرب الله في السورة مثلين اولهما لرجلين احدهما مؤمن والاخر كافر جعل الله لهما جنتين من اعناب ونخيل وزرع يجرى خلالهما نهر ، ونؤتي كل منهما ثمارها واكلها دون نقص فاخذ يفاخر صاحبه بما يملك من ثروة ومن اولاد وانصار وخيل اليه انها لن تبيد ابدا ، ولن تقوم الساعة وأن قامت على زعم صاحبه فانه سيجد عند ربه خيرا منها ، فنعى عليه الرجل كفره ، وذكره بنعمة ربه حين خلقه ، فجدير به ان يذكر ربه والا يشرك به احدا وأن يستعين بالله الذى وهبه كل شيء يجب لصاحبه المؤمن ودعا عليه بأن يرسل الله عذابا من السماء على جنته فتصبح بلاقع ويغور ماؤها ، فاستجاب الله دعاءه واهلك ثمره ، واصبح الكافر نادما يتلهف على ما انفق في عمارتها وانمائها .

---

(١) يلاحظ تفسير النسفي ٣/ ١٩ ـ ٢١ .

والمثال الاخير هو الحياة الدنيا شبهها بالماء الذى انزله الله من السماء فنبا بسببه نبات الارض حتى التف وتداخل وخالط بعضه بعضا فلم يلبث حتى أصبح هشيما تذروه الرياح وهكذا تبدو الحياة الدنيا ثم تنتهي بقدرة الله وارادته .

٧- المراحل المدنية

والآيات المدنية شأنها شأن الآيات المكية نزلت على ثلاث مراحل : أولى ومتوسطة وختامية وكان ترتيب سورها كالآتي : البقرة الانفال ، آل عمران ، الاحزاب ، الممتحنة ، النساء الحديد ، أما المرحلة المتوسطة فقد كان ترتيب سورها كالآتي :

سورة محمد فسورة الطلاق ، فالحشر ، فالنور ، فالمنافقون ، فالمجادلة ، فالحجرات ، أما المرحلة الاخيرة فكانت سورها مرتبة كالآتي : التحريم فالحج فالمائدة فالتوبة فالنصر ولما كانت الآيات في هذه السور هي اخر ما نزل من القرآن فان الآيات التي يرد ذكرها ناسخة أو منزلة لاحكام غيرها تكون ضمن هذه السور ، أما الآيات المنسوخة فانها على الاغلب في السور المكية حيث نزلت أولا كما انها تتضمن - فيما تتضمن - التشريع في العبادات والمعاملات وبيان ما أحله الله وما حرمه ، وذكر الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ، وقوانين السلم والحرب ، وذكر المعارك والغزوات ، ومثال ذلك سورة الانفال التي كان يسميها بعض الصحابة سورة بدر الكبرى وفي هذه السورة دار الحديث عن معركة بدر الكبرى والنصر الذى حققه المسلمون فيها ، واختلافهم في الغنائم التي غنموها ، وفيها تصوير لاولئك الذين اقدروا على الحرب وهم كارهون لها ، واستغاثة المؤمنين بربهم ، واستجابة الله لهم والدعوة للمؤمنين الا يفروا من المعركة ، وان يستجيبوا لدعوة الله ورسوله ، مبينة لهم مكر الكافرين وكيدهم وحث الله المؤمنين على قتال اعدائهم ثم يوضح لهم طريقة تقسيم الانفال اى الغنائم (لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وفي السورة تذكير لهم بمعارك فشلوا فيها من قبل وأساس هذا الفشل ويدعوهم الى التماسك والتعاون ونبذ الشقاق والنفاق والكف عن الاذى ويضرب لهم مثلا بما نزل بآل فرعون ثم يبين الطريقة التي يعاملون بها خصومهم بما خصومهم بأن يعدوا لهم من قوة ومن رباط الخيل ما استطاعوا ولكن اذا جنحوا للسلم فاجنح لها وبين طريقة معاملة الاسرى وثواب من آمن بالله وجاهد في سبيله ونلمح في سورة النصر التي قد تكون آخر سورة نزلت على الرسول اشارة الى ما فتح الله على المسلمين من نصر وكيف أخذ الناس يدخلون في دين الله افواجا فما على الرسول الا أن يسبح بحمد ربه ويستغفره .

واذا وجدنا تنوعا في اساليب في بعض السور فان ذلك مبعثه اختلاف الموضوعات التي عالجها القرآن الكريم .

فواتح السور

يشتمل القرآن على (١١٤) مائة واربع عشرة سورة اولها الفاتحة التي تسمى ام الكتاب واخرها سورة الناس ، ويفصل بين كل سورة واخرى البسملة اى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي عدها بعضهم آية والى هذا الراى ذهب الشافعي وشايعه قراء مكة والكوفة واستدلوا على ذلك بان السلف قد اثبتوها في المصحف وكذلك عدها ابن عباس آية حيثما وردت في القرآن الكريم اما ابو حنيفة ومن تبعه من قراء المدينة والبصرة والشام وفقهائها فلم يعدوها آية في اية سورة وردت ، وانما ذكرت للفصل بين سورة واخرى (١) .

وقد عنى اصحاب البلاغة بفواتح السور لان حسن الابتداء يعد ضربا من البلاغة ذلك لانه اول ما يقرع السمع ويجلب انتباه السامع وتهيئه اذا كان اول الكلام انيقا والا اعرض عنه حتى ولو كان الباقي في نهاية الحسن ، لذا وجب ان يؤتى باعذب لفظ واجزله واسلمه واصحه معنى وابعده عن التقيد والنبس ، واستنادا على ذلك قالوا : ان جميع فواتح السور كانت على احسن الوجوه وابلغها ، ومثال ذلك الابتداء الحسن الذى اطلق عليه البلاغيون براعة الاستهلال وهو ان يشعل الكلام حال المتكلم فيه كسورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن ، وقد اشتملت على جميع مقاصده ، وكذلك سورة اقرا التي كانت بدايتها ان تسمى (عنوان القرآن) (٢) .

وقد تم تصنيف فواتح السور او الايات التي تفتتح بها الى عشرة اصناف :

اولها : الاستفتاح بالثناء عليه عز وجل وهذا الثناء اما ان يكون اثباتا لصفات المدح او نفيا وتنزيها من صفات النقص نحو (الحمد لله رب العالمين) و(تبارك الذى نزل الفرقان) و (سبحان الذى اسرى بعبده) .

وثانيها : الاستفتاح بالنداء نحو (يا ايها المدثر) و (يا ايها الذين آمنوا) .

وثالثها : الاستفتاح بالجمل الخبرية نحو (يسالونك عن الانفال) و(براءة من الله) و (الرحمن علم القرآن) .

ورابعها : الاستفتاح بالقسم نحو (والعصر) و (الشمس) و(والليل) و (والضحى)

وخامسها : الاستفتاح بالشرط نحو (اذا السماء انشقت) و (اذا السماء انفطرت) و (اذا الشمس كورت) .

---

(١) الاتقان ٢/١٠٧

(٢) الاتقان ٢/١٠٦

وسادسها : الاستفتاح بالامر نحو (قل هو الله أحد) و (اقرأ باسم ربك) و (قل أعوذ برب الناس) .

وسابعها : الاستفتاح بالاستفهام (ألم نشرح لك صدرك) و (عم يتساءلون) و (هل أتى على الانسان حين من الدهر) .

وثامنها : الاستفتاح بالدعاء نحو (ويل للمطففين) و (ويل لكل همزة لمزة) و (تبت يدا أبي لهب) .

وتاسعها : الاستفتاح بالتعليل نحو (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) .

وعاشرها : الاستفتاح بحروف التهجي نحو (الم والمص والمر وكهيعص وطه وطس وطسم وحم وحم عسق وق ون) (١) .

وقد لاحظ الزمخشري ان حروف هذه الفواتح تؤلف نصف أساس حروف المعجم حيث أن عددها أربعة عشر حرفا (٢) وردت في تسع وعشرين آية .

وكما أن آراء الباحثين لم تتفق حول اعتبار البسملة آية أم لا ، كذلك اختلفوا في النظر الى هذه الحروف التي تقع فواتح للسور ، فقال البعض أن أية واحدة من هذه الفواتح ليست بآية اما الكوفيون فقد عدوا بعضها آيات مثل (الم والمص والمر وطسم وطه ويس وحم وعسق وكهيعص) اما (الر وطس ومر وق ون) فلم يعدوا أية واحدة منها اية ، وقالوا ان هذا علم توقيفي لامجال للقياس فيه (٣) . ولم يقتصر اختلافهم على النظر الى اعتبارها آيات أو عدمه ، بل قالوا : ان بعضها مالايتأتى فيه الاعراب مثل (كهيعص وألم) وبعضها يتأتى فيه الاعراب وهو ان يكون فيه اسماً مفرداً مثل (ص وق ون) أو أنها أسماء علم على زنة الفعل مثل (حم وطس ويس) فانها مجازنة لقابيل وهابيل وكذلك (طسم) ، وتساءل الطبرسي عن كيفية تنزيل هذه الحروف قبل انه يوقف عليها وقف التمام وذلك اذا جعلت على معنى مستقل غير محتاج الى مابعده ، أو اختيرت أخبارا لحذف مبتدأ كل منها نحو قوله تعالى (الم) أي هذه السورة الم ، ثم يستأنف القول (الله لا اله الا هو الحي القيوم) .

واذا كانت الآراء قد تشعبت في الكشف عن هذه الحروف فقد ظن بعض الناس أنها علم مستور وسر محجوب ، فقال قائلهم : لكل كتاب سر وسره في القرآن أوائل السور وقال الشعبي : انها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله عزوجل) (٤) ولكن المتكلمين ردوا على هذا القول بأنه (لايجوز أن يرد في كتاب الله مالايفهمه الخلق ، لان الله

---

(١) البرهان ١/ ١٦٤ والاتقان ٢/ ١٠٥ .
(٢) الكشاف مقدمة سورة البقرة .
(٣) البرهان ١/ ١٧٠ .
(٤) الاتقان ١/ ١٧٣ .

تعالى امر بتدبره والاستنباط منه ، وذلك لا يمكن الا مع الاحاطة بمعناه) (١) .

أما المختصون الذين قالوا بأن المراد من هذه الحروف معلوم وواضح ، فقد تعددت آراؤهم في هذا المجال ، وأوردوا وجوها كثيرة زادت على العشرين ، ولكننا نختار واحدا منها ، هو الأقرب الى الصواب فيما نظن يؤدي هذا الرأي (أن الله اقسم بهذه الحروف) أن الكتاب الذي يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل الذي لا شك فيه ، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف اذا كانت أداة البيان ، وهي كتب الله المنزلة باللغات وهي أصل كلام الامم بها يتعارفون وقد اقسم الله تعالى (بالفجر) و (الطور) وامثالها فكذلك شأن هذه الحروف بالقسم بها .

وهناك رأي مقارب لهذا ، وهو أن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي ينطق بها القوم ويبنون كلامهم منها .

ولئن قال بعضهم أن هذه الفواتح من الحروف ما هي الا اسماء للسور ، فانه يرد على ذلك بأن بعضها [illegible] افتتحت بها خمس سور هي : البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان و[illegible] (٢) .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المرشد الى آيات القرآن الكريم ص ٢٧ .

جمع القـــرآن وتدويـنـــه

قبض رسول الله ولم يكن القرآن مجموعا بين دفتي مصحف ، ولكنه كان محفوظـــا في صدور الرجال ، فقد كان عدد غير يسير من الصحابة يحفظونه كاملا من أوله الى آخره ، ومن جهة أخرى فقد كان مكتوبا بصورة متفرقة على العسب [١] ، واللخاف والرقاع والاكتاف وكان التفرق من ذلك الحفاظ عليه والعناية به ، ولئلا يختلط بالحديث كان الرســـول يأمر بعدم تدوين الحديث في الوقت الذي تدون فيه كل آية بعد نزولها [٢] .

ويبدو أنه كان يجري ترتيب السور كل واحدة في موضعها ، كما كـــان يجري ترتيـــب الايات كل اية في موضعها من السورة ، بدلالـــة قول زيد بن ثابت أحد كتاب الوحي — (كنا عند النبي نؤلف القرآن من الرقاع) [٣] يريد بذلك انهم كانوا يقومون بهذا التأليـــف والترتيب في عهد الرسول وتحت اشرافه ولكن لم يقم أحد بجمعه بين دفتي مصحف كمـــا ذكرنا .

وكان اول خليفة بعد الرسول ابوبكر ، وأهم مشكلة جابهت عندما تولى الامر قيـــام الردة بين بعض القبائل الذين كان اسلمهم معقودا بالرسول وقد ذهبت بهم الظنون أن الاســـلام سيزول بزواله ، فعادوا الى ماكانوا عليه في الجاهلية ، ونقضوا عصا الطاعة ، وظهر عدو من ادعياء النبوة ، فلابد للخليفة أن يقضي على الفتنة في مهدها ، وأن يعلي كلمة الله ويرفـــع رايـة الاسلام ، ومن هنا فقد جهز جيشا ضخما بقيادة خالد بن الوليد [٤] ، وكان هذا الجيش يضم عددا كبيرا من الحفاظ ، وفي معارك حامية دارت رحاها على أرض اليمامة انتصر المسلمون بعد أن استشهد مئات منهم من بينهم عدد من حفاظ القرآن ، واذا كان الســـرور والانتصار قد عم الجزيرة العربيـــة فان استشهاد الحفاظ بين القتلى ، قد دفع بفريق من رجال الفكر ان يتدبروا الامر ، وأن يستعدوا لجمع القرآن قبل فوات الفرصـــة ونظروا في المستقبل فوجدوا احتمال قيام حروب اخرى ليس ببعيد ، ومن ثم فان ذهـــاب عدد آخر من الحفاظ أمر ممكن أيضا ، وقد كان عمر بن الخطاب من اوائل الذين تدبـــروا هذا الامر لذلك فقد بادر الى الخليفة ابوبكر مقترحا عليه أن يجمع القرآن ، وقد راقـــت الفكرة للخليفة ، ورأى ما تنطوي عليه من حكمة وصواب فبعثا الى زيد بن ثابت وهما مجتمعان ،

---

(١) العسب جمع عسيب ، ويراد به عسيب النخل ، واللخاف صفائح الحجارة والرقاع قطع الادم ، والاكتاف عظام الكتف حيث تكون عريضة .

(٢) ورد في الحديث قوله (ص) لاتكتبوا عني شيئا غير القـــرآن .

(٣) الاتقان ١/ ٦٠

(٤) انظر تفاصيل هذه الحروب في الطبري (حوادث الحادية عشرة من الهجرة) .

فيه الدماء وحين استقر به المجلس، خاطبه الخليفة أبوبكر قائلا (ان عمر اتاني فقال : أن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني لاخشى ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ، فقال عمر : هو والله خير فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر) ثم طلبا منه أن يقوم بجمع القرآن لاسيما وأنه كان معتمدا من قبل الرسول حين عهد اليه بكتابة الوحي ، وقد أحس زيد بثقل الامانة وجسامة المسؤولية ، ويصف مشاعره انذاك قائلا : (والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ماكان أثقل علي من هذا الطلب) وقد تلكأ في الاجابة على ذلك وقضى في حيرة من أمره لان الخاطرة التي ساورت أبا بكر من قبل قد ساورته في الاقدام على عمل لم يفعله رسول الله ، ولكن بعد أن الخليفة وعمر ظلا يراجعانه في الامر حتى اقتنع وعزم أن يبذل قصارى جهده ليقوم به على افضل وجه ، ويؤدي الرسالة كما عهد اليه بها ، فأخذ يتتبع القرآن بأيا ته وسوره في الرقاع والعسب واللخاف وغيرها ، ويقارنها بما هو محفوظ في صدور الرجال وكانت أخر اية من سورة التوبة قد وجدها مع أبي خزيمة الانصاري ، لم يجدها عند غيره ، وبذلك تم جمع الصحف فقر عند لدى الخليفة أبي بكر حتى توفاه الله وانتقلت منه الى الخليفة عمر ومن بعده الى حفصة بنت عمر زوج الرسول ، وهناك رواية اخرى مؤداها أن الامام عليا آلى على نفسه بعد وفاة الرسول الا يأخذ عليه رداء الا لصلاة جمعة حتى يجمع القرآن فجمعه ، وقد سمي بالصحف ، وقيل أن أول من سماه بهذا الاسم هو سالم مولى ابي حذيفة ، حيث رأى بالحبشة كتابا مثله يحمل الاسم نفسه (١) .

واذا كان جمع القرآن في هذه المرحلة قد تم في منتهى الدقة والامانة حيث كان زيد بن ثابت لا يكتب آية الا برجوع شاهدي عدل عليها ، مع مقارنة الاية بما هو مكتوب ، وبما هو محفوظ عنده ، فان العناية لم تقف عند هذا الحد ، ذلك أن الخليفة عثمان بن عفان كان قد بلغه أن ثمة اختلافات في القراءات تقع بين المسلمين لاسيما قد امتدت الفتوحات الى مناطق شاسعة في العراق والشام وارمينية واذربيجان كما تكرر وقوع هذه الخلافات بين الغلمان والمسلمين ، فادرك الخليفة انه لابد من القيام بجمع القرآن وتناسب سوره وآياته على قراءة واحدة ورأى أن يكتب امام الناس وقد بعث الى اثني عشر رجلا من قريش والانصار وعهد اليهم بالعمل على أن يكون المصحف المحفوظ لدى حفصة مرجعهم فيما يشكل عليهم كما يذكر احدى الروايات والاصح أن اللجنة التي عهد اليها

---

(١) انظر صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن) وانظر مباحث في علوم القرآن ص ٧٤ .

كتابة المصحف وترتيبه تألفت بأمر الخليفة من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ونسخوا المصحف الذي كان محفوظا عند حفصة ، وقد امرهم الخليفة ان يرجعوا الى لغة قريش اذا اختلفوا في شيء من القرآن ، حتى انتهوا من عملهم بان كتبوا نسخة من القرآن مرتبة السور والايات على قراءة واحدة هي لغة قريش ، وبذلك اصبحت الناس يقرأون القرآن على لغة واحدة ، وقد تم احراق كل قرآن سواه ثم كتبت عدة نسخ من المصحف وارسلت الى الافاق ، الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وبقيت نسخة في المدينة وفي ذلك يقول الامام علي (لا تقولوا في عثمان الا خيرا فوالله ما فعل الذي فعل بالمصاحف الا عن ملأ منا) وقال ايضا (لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان) [1] ولم يتغير الترتيب في السور والايات عما كان جاريا في عهد الرسول ، ويلاحظ ان سورة براءة لم تبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وقد قال الخليفة عثمان في سبب ذلك ان الرسول كانت تنزل عليه السورة ذات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الايات في السورة ... وكانت الانفال من اوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة اخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت انها منها فقبض رسول الله ولم يبين لنا انها منها فمن اجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال [2] وهذا يدل دلالة قاطعة ان ترتيب السور كان في عهد الرسول ، وهناك دليل اخر ان بعض السور كالبقرة وآل عمران والنساء كانت تقرأ انذاك ، وقد توفي قبل ترتيب سورة براءة لذلك تركت دون بسملة وقد قال القاضي ابوبكر في كتابه (الانتصاف) ، الذي نذهب اليه ان جميع القرآن الذي انزله الله وامر باثبات رسمه ... هو الذي حواه مصحف عثمان لم ينقص فيه شيء ولا زيد فيه شيء وهكذا تم تاليف القرآن على ماكانوا يسمعونه من النبي بكل دقة وامانة [3] .

على ان هذالك من يرى ان ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة الذين جمعوا القرآن ولكن الروايات تؤيد ان ترتيب السور ـ ان لم تكن كلها ـ فان معظمها جرى تاليفه في عهد الرسول ، وهو على الوجه التالي :-

---

(١) الاتقان ١/٥٩

(٢) الاتقان ١/٥٩

(٣) الاتقان ١/٦١

١- السبع الطوال - اولها البقرة واخرها يونس .

٢- المؤن - سميت بذلك لان كل سورة منها تزيد على المائة او تقاربها واولها براءة واخرها الصافات .

٣- المثاني - ماولي المئين لانها ثنتها اى كانت بعدها واولها الاحزاب واخرها الزمر .

٤- الحواميم - وهي تبدأ بحم المؤمن وتنتهي بسورة فصلت .

٥- المفصل - سميت بذلك لكثرة الفواصل التي بين السور بالبسملة . وقيل لقلة المنسوخ حيث سمي بالمحكم ايضا واول هذه السور الرحمن حتى اخر القرآن .

والقراءة المتبعة للقرآن في وقتنا هذا هي قراءة عاصم بن ابي النجود الكوفي التي تلقاها عن ابي عبدالرحمن السلمي عن عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب وزيد بن ثابت وابي بن كعب [1] (رضي الله عنهم) .

---

(١) البرهان ١/٢٦٢ .

الناسخ والمنسوخ

ورد مصطلح النسخ بمعان متعددة منها الازالة كقوله تعالى (فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم اياته) وبمعنى التبديل ومنه (واذا بدلنا اية مكان اخرى) وبمعنى التحويل كتناسخ المواريث من واحد الى واحد وبمعنى النقل من موضع الى موضع ومنه (نسخت الكتاب) اذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه وهذا الوجه لايصح ان يكون من القرآن [١] . ونسخ الاية بالاية اى ازالة حكمها [٢] . ويقال نسخت الشمس الظل اى ازالته ، وفي قوله تعالى (ماننسخ من اية اوننسها نات بخير منها او مثلها) يظهر المعنى الاصطلاحي لكلمة النسخ التي كثر الجدل حولها ولعل ادق تعريف لهذا المصطلح هو (ان النسخ رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي) [٣] .

والعلماء الذين تناولوا موضوع النسخ لم يتفقوا على وجوهه فقد ذهب بعضهم الى القول ان النسخ لايكون الا في القرآن ، وانه لاينسخ القرآن الا القرآن ، اوعلى حد ما اشار اليه السيوطي (لايكون شيء القرآن وخيرا منه الا قرآن) [٤] .

وقال البعض ان القرآن ينسخ بالسنة استنادا الى قوله تعالى (ومايلطق عن الهوى) وجعلوا منه اية الوصية التي نسخت بالميراث ، وقال اخرون ان السنة اذا كانت بامر الله وعن طريق الوحي نسخت [٥] . ومنها نسخ السنة بالقرآن كنسخ الصيام بيوم عاشوراء بما كتبه الله في القرآن من صوم رمضان ونسخ التوجه الى بيت المقدس بالكعبة . وقد انكر الشافعي نسخ القرآن بالسنة ولكنه استدرك بانه حيث وقع نسخ في القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له . اما نسخ السنة فقد وافق عليه اكثر العلماء .

وللنسخ اقسام منها نسخ المامور به قبل امتثاله وهو النسخ مع الحقيقة كاية النجوى (يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم) فقد نسخت الاية بعدها (اأشفقتم ان تقدموا بين يدى نجواكم) .

وهناك قسم ظنه بعض الدارسين نسخا وكا هو من النسخ في شيء ، وذلك نسخ ماكان شرعا لمن كان قبلنا كاية شرع القصاص والديه وتحريم نساء الاباء وحصر الطلاق في

---

(١) الاتقان ٢/ ٢٠

(٢) انظر الصحاح للجوهري واساس البلاغة في مادة نسخ .

(٣) مباحث في علم القرآن ص٢٩٦ .

(٤) الاتقان ٤/ ٢١ .

(٥) المصدر نفسه وانظر البرهان ٢/ ٣٢ .

ثلاث ، ولهذا عدت تلك الايات نسخا من قبيل التجوز لا الحقيقة[١] .

وهناك قسم اخر امر به لسبب ثم يزول بزوال السبب كالامر حين الضعف والقلة بالصبر ثم نسخ بايات القتال ، وهذا ليس من قبيل النسخ انما هو من قسم النسأ ، كما قال تعالى (او ننسأها) [٢] فالنسأ هو الامر بالقتال الى ان يقوى المسلمون ، وفي حال الضعف يكون وجوب الصبر على الاذى .

وهنالك مايطلق عليه التخصيص ، وقد عده ابو مسلم الاصفهاني ضربا من النسخ ، بل انه ابطل ضروبا كثيرة من النسخ لانه ظنها تتعارض مع قوله تعالى (لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [٣] . وهكذا اثر الاصفهاني ان يسمى النسخ بالتخصيص والمراد به قصر العام على بعض افراده كقوله تعالى (ان الانسان لفي خسر ، الا الذين امنوا) وقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ...) (... الا الذين آمنوا) والحق ان هذا ليس من النسخ في شيء [٤] . كما زعموا ان هنالك ايات اولها ناسخ واخرها منسوخ كالاية (يا ايها الذين امنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) [٥] وهذا القول لايقوم على اساس من الحقيقة ومن هذا القبيل دعوى البداء حيث ادعى خصوم النبي انه كالذي يرى الراى ثم يبدو له راى اخر فيتراجع ، ولما كانت السور تحتوي على ايات ناسخة واخرى منسوخة ، فقد تم تقسيم سور القرآن الى اقسام اربعة [٦] .

١ـ قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ وهو ثلاث واربعون سورة .
٢ـ قسم فيه الناسخ والمنسوخ وهو خمس وعشرون سورة .
٣ـ قسم فيه الناسخ فقط وهو ست سور .
٤ـ قسم فيه المنسوخ فقط وهو الاربعون الباقية .

واقول ان هذه الاقسام الاربعة وما احتوته من سور ناسخة او منسوخة ليس متفقا عليه بل هو موضع خلاف ، ولكنه اقرب الى الصواب [٧] .

---

(١) الاتقان ٢/ ٢١
(٢) البقرة ١٠٦ ، ولها قراءتان الاولى بالهمزة وفتح النون وهي قراءة ابن كثير وابن عمرو والثانية (ننسها) بدون همزة وبضم النون وكسر السين وهي قراءة الباقين من السبعة . انظر التيسير ص ٧٦ .
(٣) سورة فصلت ٤٢
(٤) الاتقان ٢/ ٢٢
(٥) المائدة ١٠٥
(٦) الاتقان ٢/ ٣٢ وانظر ... تلك السور هنالك .
(٧) المصدر نفسه ...

ومن الايات المنسوخة قوله تعالى (فاينما تولوا فثم وجه الله) وهي على رأى ابن عباس قد نسخت بقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) وقوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) منسخ بالاية (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله تعالى (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ... منسوخة باية المواريث والاية (وعلى الذين يطيقونه فدية) منسوخة بقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) والاية (يسألونك عن الشهر الحرام ...) منسوخة بقوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة) والاية (فان جاءوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم) منسوخة بقوله تعالى (وان احكم بينهم بما انزل الله) والاية (وان يكن منكم عشرون صابرون) منسوخة بالاية بعدها ، والاية (انفروا خفافا وثقالا) منسوخة باية العذر (١) .

وهنالك من جعل النسخ على ثلاثة اضرب الاول منها ما نسخت تلاوته وحكمه والثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته والثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه .

ويعلق القاضي ابوبكر في كتابه الانتصار على الضربين الاول والثالث بان جميع ما ذكر منها اخبار احاد ، ولا يجوز القطع على انزال قران ونسخه باخبار احاد لا حجة فيها (٢) .

وقد اخذ بهذا الراى ابن ظفر في كتابه الينبوع حيث قال (ان خبر الواحد لا يثبت القرآن) .

ولكن الضرب الثاني اى الذى نسخ حكمه دون تلاوته فهو الذى اقره معظم العلماء وقد عدد منها السيوطي ثلاثا وعشرين اية .

اما كيفية معرفة الناسخ والمنسوخ فلابد من الرجوع الى نقل صريح عن رسول الله او عن صحابي يقول اية كذا نسخت اية كذا واذا وجد تعارض فلابد من الرجوع الى التاريخ لمعرفة الراى الصحيح حيث تكون الاية السابقة هي المنسوخة واللاحقة لها هي الناسخة ، ولا تسمع اقوال المجتهدين في هذا الباب دون نقل صحيح او معارضة بينه ، لان النسخ يتضمن رفع في حكم واثبات حكم تقرر في عهد الرسول (٣) .

وفي الختام نقول أن الاصل في القرآن الكريم ان تكون اياته محكمة ، وان يكون النسخ امرا عارضا فيه ، واذا كان هنالك من عدد ايات كثيرة ظن انها فيها نسخا ، ان الراى المقبول ان عدد هذه الايات قليل جدا وهو في حدود العشرين اية اشار اليها السيوطي ، وقد تكون الايات الاخرى التي اعتبرها غيره نسخا انما هي من قبيل تخصص او تاخير البيان او الانساء (٤) .

---

(١) الاتقان ٢/ ٢٣ .

(٢) البرهان ٢/ ٤٠ .

(٣) الاتقان ٢/ ٢٦ .

(٤) مباحث في علم القرآن ٢١٢ ، ٢١٣ .

القراءات ولمحة عن القـــــراء

نزل القرآن بلغة قريش ، وما ان انتشر بين القبائل حتى كثرت قراءاته وتعددت لهجاته واختلفت تلك القراءات اختلافا كبيرا في ضبط الحركات سواء منها ماكان حركات بناء او حركات اعراب كما اخذ هذا الاختلاف وجها اخر من حيث الامالة والمد والقصر والادغام ... ومن هنا تعددت قراءات القرآن اى لغاته وهو ان يقرأ كل قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم ، تيسيرا من الله لهم [1] وتسهيلا لقراءته يؤيد ذلك قوله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر) [2] . وبهذا انقسمت القراءات وتعددت نحسبها بعضهم سبعا وجعلها اخرون عشرا وزاد بعضهم الى اربع عشرة قراءة ، وكان تعريف القراءة الصحيحة انها كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها [3] . وقد قسمت تلك القراءات الى اقسام [4] :

١ـ المتواتر وهو مانقله جمع عن جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم الى منتهاه ، وهذا ينطبق على القراءات السبع .

٢ـ المشهور ـ وهو ماصح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ووافق العربية ورسم الخط القرآني واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ .

٣ـ الاحاد ـ وهو ماصح سنده وخالف الرسم والعربية ولم يشتهر الاشتهار المذكور ولا يقرأ به كما روى عن ابي بكر ان النبي قرأ (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان) ويمثل هذا النوع قراءة الثلاثة التي هي تمام العشرة .

٤ـ الشاذ ـ وهو مالم يصح سنده من ذلك قراءة (ملك يوم الدين) بصيغة الماضي ونصب يوم ، وقراءة (اياك نعبد) ببناء الفعل للمجهول .

٥ـ الموضوع ـ وهو ما يشبه المدرج من الحديث ، اى ما زيد في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعيد بن العاص (وله اخ واخت) من أم ، وقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج .

ولاخلاف في ان كل ماهو من القرآن يجب ان يكون متواترا ، ويجب التمييز بين القرآن والقراءات ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد للبيان والاعجاز ، اما القراءات فانها اختلاف الفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد ومد واما لتوغيرها .

---

(١) البرهان ١/ ٢٢٦ .
(٢) سورة القمر ١٧
(٣) الاتقان ١/ ٧٥
(٤) الاتقان ١/ ٧٧ .

وقد أشرنا الى ان القراءات السبع متواترة وجلها بعضهم مشهورة ولابد لنا من الاشارة الى قوله عليه السلام (أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) [١] فهل هذه الاحرف السبعة هي القراءات السبع ، وفي هذا الصدد يقول ابو شامة (ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهي خلاف اجماع أهل العلم قاطبة وانما يظن ذلك بعض اهل الجهل) [٢] وعلى هذا فان الاحرف السبعة ليست بالقراءات السبع ، ذلك أن الاحرف تختلف فيما بينها لفظا ومادة ويفسر ذلك قول ابن مسعود (انما هو كقولك هلم واقبل) ويفسر ذلك قول ابن مالك في الاية (أن ناشئة الليل هي اشد وطئا واصوب قيلا) أصوب واقوم واهدى واحد ، وقراءة ابن مسعود (هل ينظرون الا زقية واحدة) ، فكان (هل ينظرون الا صيحة واحدة) .

فالاحرف هي اللغات التي تختلف بينها لفظا ومادة ، اما القراءات التي تختلف في القصر والمد والحركة والسكون والنقل والاثبات وحركات الاعراب فليست من الاحرف في شيء لانها اختلاف في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ وحين اختلف المسلمون على ذلك الاحرف جمع لهم عثمان المصحف الامام وامر بما عداه من المصاحف فمحي محوا وقيل أحرق احراقا ، وعلى هذا لم يبق من هذه الاحرف السبعة الا حرف واحد وهو حرف قريش الذي اختلفت فيه لهجات القراءات ، فظهر من مظاهر اختلاف اللهجات اما تلك اللغات التي انزل عليها القرآن فلم تبق فيها الا لغة واحدة [٣] .

واذا كان لكلمة الحرف في اللغة اكثر من معنى واحد فالكلمة المنظومة تسمى حرفا وكذلك الجهة وحرف الهجاء ، ومن هنا فقد ذهب عياض الى القول انه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التيسير والتسهيل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على ارادة الكثرة في الاحاد ويدل على هذا ما روي عن رسول الله ان القرآن انزل على سبعة احرف كلها كاف شاف [٤] .

وقد تعددت الوجوه وكثرت الخلافات حول تسمية الاحرف السبعة حتى بلغ بها بعضهم خمسة وثلاثين وجها وبلغ بها البعض الاخر اربعين وجها [٥] .

---

(١) البرهان ١/ ٢١٢

(٢) الاتقان ١/ ٧٨

(٣) انظر في الادب الجاهلي للدكتور طه حسين ١٠٤—١١٠ وانظر البرهان ١/ ٢١٥ والاتقان ١/ ٤٥

(٤) الاتقان ١/ ٤٥

(٥) الاتقان ١/ ٧٨

والقراءة على هذه الاحرف السبعة لم تكن واجبة على الامة بل هي جائزة ، وعندما رأى الصحابة أن الامة تفترق وتختلف اذا لم يجمعوا على حرف واحد ، استقر الرأي على صحف اختاروا اخرها عرضا على رسول الله فاقره وهو حرف زيد بن ثابت الذي جمع عثمان المصاحف عليه ، والذي نقرأ به الان (١) .

والحق ان هذه القراءات السبع لم تشتهر بين الناس الا على رأس المائتين من الهجرة حيث ان الذين صنفوا في القراءات من الائمة المتقدمين كابي عبيد القاسم ابن سلام وابي حاتم السجستاني وابي جعفر الطبري واسماعيل القاضي قد ذكروا عددا كبيرا من القراء هم اضعاف اولئك القراء السبعة الذين اشتهر منهم في البصرة ابو عمرو ويعقوب وفي الكوفة حمزة وعاصم وفي الشام ابن عامر وفي مكة ابن كثير وفي المدينة نافع واستمروا على ذلك فلما كان على رأس الثلثمائة اثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب وذكر السبب في الاقتصار على السبعة هو ان الائمة كان عددهم كثيرا فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتضبط القراءة به فنظروا الى من اشتهر بالثقة والامانة وطول العمر وملازمة القراءة والاتقان على الاخذ منه فاقتدوا من كل مصر اماما واحدا ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الائمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به كقراءة يعقوب وابي جعفر ونحيسة (٢) .

واذا كان لنا ان نشير الى لمحة موجزة عن هؤلاء القراء واسانيدهم فنقول :

١ — نافع المدني — ابن عبد الرحمن ، احد الموالي اصله من اصفهان ، ويكنى ابا رويم وقيل ابا الحسن وتوفي في المدينة سنة ١٦٩ .

٢ — ابن كثير المكي واسمه عبد الله كان مولى لعمرو بن علقمة وهو من التابعين وتوفي سنة ١٢٠ هـ .

٣ — ابو عمرو بن العلاء البصري وينتهي نسبه الى تميم وكانت وفاته بالكوفة سنة ١٥٤ .

٤ — ابن عامر الشامي واسمه عبد الله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك وهو من التابعين وليس في القراء السبعة من العرب غيره وغير ابي عمرو والباقون كلهم موال توفي في دمشق سنة ١١٨ هـ .

٥ — عاصم الكوفي — هو عاصم بن ابي النجود ويكنى ابا بكر وكان من التابعين وتوفي بالكوفة سنة ١٢٨ هـ وقيل سنة ١٢٧ هـ .

---

(١) البرهان ١/ ٢٢٢ .

(٢) الاتقان ١/ ٨١ .

٦- حمزة الكوفي - وهو حمزة بن حبيب الفرضي التيمي بالولاء ، توفي بحلوان في خلافة ابي جعفر المنصور سنة ١٥٦ .

٧- الكسائي الكوفي - هو علي بن حمزة النحوي كان مولى لبني اسد ، وكانت وفاته بالري في خراسان حيث كان بصحبة الرشيد سنة ١٨٩ هـ [١] . واخذ من هؤلاء عدد كبير من الرجال اشار اليهم الداني في كتابه التيسير [٢] كما اشار الى اسناد كل واحد منهم [٣] .

وهذه نماذج من وجوه القراءات لدى القراء :

١- ففي باب الاستعاذة أجد اكثر القراء على الجهر بها واداتها لفظا ، على أن نافع كان يخفيها في جميع القرآن وحمزة كان يجهر بها في اول أم القرآن خاصة ويخفيها بعد ذلك في سائر القرآن .

٢- البسملة - لاخلاف بين القراء في ترك البسملة بين الانفال وبراءة وكان اصحاب حمزة يصلون اخر السورة بأول الاخرى ولا يبسملون بينها وكان بن كثير وعاصم والكسائي يبسملون بين سورتين في جميع القرآن عدا الانفال وبراءة [٤]

٣- في سورة أم القرآن (الفاتحة) ملك يوم الدين قراها عاصم والكسائي بالالف والباقون بغير الالف .

٤- الصراط المستقيم قرئت بالصاد باستثناء قنبل فقد قرأها بالسين .

٥- غير المغضوب عليهم قراها حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها [٥] .

٦- كان ابو عمرو اذا قرأ في الصلاة أو ادرج قراءته او قرأ بالادغام لم يهمز كل همزة ساكنة سواء كانت فاء اوعينا او لاما نحو قوله (يؤمنون) (يلعنون) (بئس) (المؤتفكات) (الذئب) [٦]

٧- كان الكسائي يقف على هاء التانيث وما ضارعها في اللفظ بامالة نحو (جنه) (زوجة) (نعمة) (القيامة) (الاخرة) (خاطئة) [٧]

---

(١) انظر التيسير في القراءات السبع ص ٤-٧
(٢) المصدر نفسه ٧-٩
(٣) المصدر نفسه ١٠-١٦
(٤) التيسير للداني ١٧ .
(٥) التيسير ١٨
(٦) التيسير ٣٦
(٧) التيسير ٥٤
(٨) التيسير ١٧٧ .

٨ــ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو باسكان اللام في (كل شيء خلقه) والباقون يفتحونها .
٩ــ (بما يعملون بصيرا) و(بما يعملون خبيرا) ابو عمرو بالياء والباقون بالتاء .
١٠ــ (وينزل الغيث) نافع وعاصم وابن عامر بالتشديد والباقون بالتخفيف [٢] .

ولابد لنا أن نذكر ان القراء الذين كانوا في عهد الرسول والذين اشتهروا بأقرأ القرآن هم : (عثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن مسعود وابو الدرداء وابو موسى الاشعري وابي ابن كعب [٣] وهؤلاء كانوا جميعا من الصحابة وقد اخذ عنهم خلق من التابعين ففي المدينة كان ابن المسيب وعروة وسالم وعمر بن عبد العزيز وسليمان وعطاء ابن يسار ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارئ وعبد الرحمن بن هرمز ومجاهد وعكرمة ومسلم بن جندب وزيد بن اسلم [٣] . وكان في مكة والبصرة والكوفة والشام عدد كبير من التابعين الذين يقرئون القرآن على ما رسمه لهم القراء الاولون من الصحابة .

واذا كان لاختلاف القراء من فائدة فهي التهوين والتسهيل والتخفيف على الامة اذ يتاح لكل قبيلة ان تقرأ بلسانها ولهجتها [٤] . ومنها استنباط الاحكام من دلالة كل لفظ حتى في القراءات الشاذة ، ففي قراءة ابن مسعود (والسارق والسارقة فاقطعوا ايمانهما) بدلا من (ايديهما) استدل بعض فهم ما يقطع في حد السرقة [٥] وقراءة سعد بن ابي وقاص (وله أخ وأخت من أم) [٦] . صرحت بنوع الاخوة في هذه القضية التشريعية المتعلقة بالميراث ، ومن هنا شاع على السنة العلماء (اختلاف القراءات يظهر اختلاف الاحكام وهكذا فان بعض هذه القراءات تكون مفسرة للقرآن لاسيما اذا كانت عن كبار الصحابة [٧] .

وفي ذلك يقول احد الكتاب المعاصرين (ان البحث في مخارج الحروف وضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة القرآن على افضح وجه وابينه كان من ابلغ العوامل في عناية الامة بدقائق اللغة العربية العظمى واسرارها ، وكان هذا الاهتمام والتجه ان القراء تشربوا بمزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك أن قدماء النحويين كالقراء كانوا مبرزين في علم القراءة ، كما كان الكثيرون من ائمة القراء كابن عمرو والكسائي بارعين في علم النحو ... ولو جمع جميع القرآن مع اختلاف الرسم في مصحف واحد لكان ذلك مايفيد قارئي القرآن ابلغ الفوائد واعظمها [٨] .....

---

(١) التيسير ١٢٧
(٢) الاتقان ١/ ٧٢
(٣) الاتقان ١/ ٧٢
(٤) الاتقان ١/ ٨٢
(٥) البرهان ١/ ٣٤١
(٦) سورة فاطر ٣٨
(٧) الاتقان ١/ ٨٢
(٨) انظر مقدمة كتاب التيسير

المحكم والمتشابه

لفت انتباه الباحثين في علم القرآن وجود عدد من الايات فيه تتعلق بصفاته تعالى وبعلم الغيب وموعد قيام الساعة كما لفت انتباههم الحروف التي تقع في أوائل السور ، وقال الكثيرون منهم انهم عاجزون عن ادراك حقيقة كل ذلك لان الله استأثر بعلمه ، وقال الاخرون ان ليس ثمة شيء استأثر بعلمه بل انه جعل العلماء يقفون على حقيقته اذا لم يتح لسائر الناس ذلك ، ومن هنا بدأ البحث في المحكم والمتشابه ، فقيل في تعريف المحكم من الايات انه هو الذي يدل على معناه بوضوح لاخفاء فيه واما المتشابه فهو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه .

فاذا كانت الايات المحكمة واضحة الدلالة فانها ليست في حاجة الى البحث والاستنباط في اغلب الحالات لان الافهام تدرك معانيها واغراضها ، ولكن الايات المتشابهة ومايحيط بها من خفاء هي التي تدعو الى البحث والتأمل والى ذلك اشار الرسول بقوله : (نزل القرآن من سبعة ابواب على سبعة احرف : زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وامثال ، فاحلوا حلاله وحرموا حرامه واعتبروا بامثاله وامنوا بمتشابهه) ... واذا قيل عن هذا الحديث بانه لايثبت وهو مجمع على ضعفه[1] . فقد استشهد به بعض العلماء لدعم رأيهم في ان المتشابه قد استأثر الله بعلمه ، وان على الناس ان يؤمنوا به دون ان يحاولوا ادراك حقيقته لانه من المتشابه الذي لايعلمه الا الله .

وفي بحث المحكم والمتشابه لابد من الاشارة الى الاية الكريمة حيث يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا (هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر الا اولو الالباب) [2] .

وواضح في هذه الاية ان المحكم يقابل المتشابه وان الراسخين في العلم يقابلون الذين في قلوبهم زيغ ، وكان تفسير هذه الاية موضع خلاف فقال فريق من المفسرين انه يجب الوقوف عند لفظ الجلالة ، وبهذا يكون معنى الاية انه لايعلم تأويل المتشابه ومعانيه الا الله تعالى والراسخون بالعلم يقولون امنا به اى المتشابه مع التسليم بانهم عاجزون عن

---

(١) البرهان ١/٢١٦ .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

لم يجعل الله لهم الى سبيلا[1] . واذا كان الوقوف عند لفظ الجلالة فان قوله (والراسخون في العلم) يستأنف على ان من المفسرين من لا يقف عند لفظ الجلالة ويقول بان (الراسخين في العلم) يعلمون المتشابه وهنا تكون عبارة (يقولون) كلاما موضحا لحال الراسخين في العلم الذي يعلمونه وهو المتشابه ويقولون آمنا به او بالكتاب[2] .

وعلينا ان نوضح بقية اجزاء الاية ليكون معنى المحكم والمتشابه اكثر وضوحا فالمراد بالكتاب اى القرآن والايات المحكمات التي (هي ام الكتاب) اى الايات التي لا تحتمل الا وجها واحدا وهي اصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها أما المتشابهات فهي المحتملات مثالها الرحمن على العرش استوى فالاستواء يكون بمعنى الجلوس والقدرة والاستيلاء ولا يجوز الاول على الله تعالى بدليل المحكم وهو قوله " ليس كمثله شيء " . اما الذين في قلوبهم زيغ اى ميل عن الحق فيتبعون ويتعلقون بما تشابه من الايات اى ما يحتمل قول المتبوع . وقول اهل الحق معا . ابتغاء الفتنة اى طلبا لان يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم وابتغاء تاويله كما يشتهون .....) .

واذا كان ذلك راى بعض المفسرين فيما يتعلق بالمتشابه من الايات فان ابا اسحق الشيرازي يقول في هذا الصدد (ليس شيء استاثر الله بعلمه ، بل وقف العلماء عليه) وهذا يعني ان العلماء يدركون حقيقة المتشابه من الايات . اما الراغب الاصبهاني فلم يوافقه بل كان رايه ان للمتشابه ضروبا ثلاثة : اولها ضرب لا سبيل الى الوقوف عليه كوقت الساعة ونحوه ... وضرب للانسان سبيل الى معرفته كالالفاظ الغريبة والاحكام المغلقة وضرب متردد بين الامرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم[3] .

وعلى هذا نستطيع ان نتبين ان العلماء قد ذهبوا في الايات الدالة على صفاته تعالى مذهبين :

اولهما - مذهب السلف وهو الايمان بهذه الايات المتشابهة التي تدل على صفات الله تعالى وتفويض معرفتها الى الله ، ومن اخذ بهذا المذهب الامام مالك صاحب الموطأ .

---

(١) تفسير النسفي ١/١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مباحث في علم القرآن ٢٤٢ .

وثانيهما - مذهب الخلف وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله ، وقد اوردنا مثالا على ذلك الاية (الرحمن على العرش استوى) التي اولها اصحاب هذا المذهب الى سبعة اوجه منها استولى وعلا وتلم بالعدل ، وقالوا في قوله تعالى (يحذركم الله نفسه) اي عقوبته ، وفي قوله تعالى يد الله فوق ايديهم قالوا تاويلها قدرته ، وفي قوله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا) كان تأويله امر ربك ، ومن ذلك قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) فقالوا في تأويل الاية ذاته (١) .

اما اهل السلف فقد آمنوا بهذه الايات وفوضوا معناها الى الله تعالى وقالوا (لانفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها) وقيل ان مالكا سئل عن الاية (الرحمن على العرش استوى) فقال (الايمان به واجب والسؤال عنه بدعة) (٢) .

وقد اورد اصحاب المذهب الثاني وهو مذهب الخلف في الحروف التي وقعت فواتح للسور - اوردوا اراء متعددة في معانيها ، بينما قال اصحاب مذهب السلف ، انها من الاسرار التي لايعلمها الا الله (٣) . ولا اظننا في حاجة لايراد امثلة من الايات المحكمة ، حيث انها تشمل العدد الاكثر من الايات في القرآن الكريم وايجازا لما سبق يمكن القول ان المتشابه من الايات يقع في (١) الحروف التي هي فواتح للسور (٢) صفات الله تعالى (٣) علم الغيب .

اما المحكم فهو يشمل الايات التي تبين التشريع والمعاملات بخاصة ، حيث انها من رضوح الدلالة بحيث ان الخلاف فيها محدود كما يشمل كثيرا من الايات التي تتناول موضوعات اخرى غير موضوعات الايات المتشابهة .

---

(١) الاتقان ٢/ ٦-٧

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر التفاصيل في الاتقان ٢/ ٨-١٠ .

ثلاثون آيـة من سـورة البقـــرة

بسم الله الرحمن الرحيـــم

الم (١) ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلواة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلـــك وبالاخرة هم يوقنون (٤) اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون (٥) ان الذيـن كفروا سواء عليهم أانذرتهم لم لم تنذرهـم لايؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلـــى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) ومن الناس من يقول آمنا باللـــه وباليم الاخر وماهم بمؤمنين (٨) يخادعون الله والذين امنوا وما يخدعون الا انفسهـم ومايشعرون (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون (١٠) واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون (١١) الا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون (١٢) واذا قيل لهم امنوا كما آمن الناس قالوا انؤمن كما آمن السفهـاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٤) واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن (١٥) الله يستهزئ بهم ويمدهـم في طغيانهم يعمهون (١٦) اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين (١٧) مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ماحوله ذهـب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون (١٨) صم بكم عمي فهم لايرجعون (١٩) اوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (٢٠) يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير (٢١) يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢٢) الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمـرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون (٢٣) وان كنتم في ريب مما نزلنا علـــى عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين (٢٤) فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين (٢٥) وبشر الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيهـا خالدون (٢٦) ان الله لايستحي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فاما الذيـن آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذيـن كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به الا الفاسقين (٢٧) الذين ينقضـــون

عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون (٢٨) كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون (٢٩) هو الذى خلق لكم مافي الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسويهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم (٣٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

١ـ (الم) الله اعلم بمراده بذلك .

٢ـ (ذلك) اى هذا (الكتاب) الذى يقرؤه محمد (لاريب) شك (فيه) انه من عند الله وجملة النفي خبر مبتدؤه ذلك والاشارة به للتعظيم (هدى) خبر ثان اى هاد (للمتقين) السائرين الى التقوى بامتثال الاوامر واجتناب النواهي لاتقائهم بذلك النار .

٣ـ (الذين يؤمنون) يصدقون (بالغيب) بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار (يقيمون الصلوة) اى ياتون بها بحقوقها (ومما رزقناهم) اعطيناكم (ينفقون) في طاعة الله .

٤ـ (والذين يؤمنون بما انزل اليك) اى القرآن (وما انزل من قبلك) اى التوراة والانجيل وغيرهما (وبالاخرة هم يوقنون) يعلمون .

٥ـ (اولئك) الموصفون بما ذكر (على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) الفائزون بالجنة الناجون من النار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجعلوا بيوتكم قبورا فان البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان .

٦ـ (ان الذين كفروا) كابى جهل وابي لهب ونحوهما (سواء عليهم انذرتهم) بتحقيق الهمزتين وابدال الثانية الفا وتسهيلها وادخال الف بين المسهلة والاخرى وتركه (ام لم تنذرهم لايؤمنون) لعلم الله منهم ذلك فلا تطمع في ايمانهم والانذار اعلام مع تخويف .

٧ـ (ختم الله على قلوبهم) طبع عليها واستوثق فلا يدخلها خير (وعلى سمعهم) اى مواضعة فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق (وعلى ابصارهم غشاوة) غطاء فلا يبصرون الحق (ولهم عذاب عظيم) قوى دائم .

٨ــ ونزل في المنافقين (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الاخر) اى يوم القيامة لانه اخر الايام (وماهم بمؤمنين) رومي فيه معنى من ، نفي ضمير يقول لفظها ،

٩ــ (يخادعون الله والذين آمنوا) باظهار خلاف ما يطونه من الكفر ليدفعوا عنهم احكامه الدنيوية (ومايخدعون الا انفسهم) لان وبال خداعهم راجع اليهم فيفتضحون في الدنيا باطلاع الله نبيه على ما ابطنوه ويعاقبون في الاخرة ، (وما يشعرون) يعلمون ان خداعهم لانفسهم والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص وطرق الله فيها تحسين ، وفي قراءة وما يخدعون ،

١٠ــ (في قلوبهم مرض) شك ونفاق فهو يمرض قلوبهم اى يضعفها (فزادهم الله مرضا) بما انزله من القرآن لتفرهم به (ولهم عذاب اليم) مؤلم (بما كانوا يكذبون) بالتشديد اى : نبي الله ، والتخفيف ، اى : قولهم آمنا ،

١١ــ (واذا قيل لهم) اى لهؤلاء (لاتفسدوا في الارض) بالكفر والتصويق عن الايمان (قالوا انما نحن مصلحون) وليس ماتحن فيه بفساد ، قال الله تعالى ردا عليهم ،

١٢ــ (الا) للتنبيه) (انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) بذلك ،

١٣ــ (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) اصحاب النبي (قالوا انؤمن كما آمن السفهاء) الجهالة اى لانفعل كفعلهم ، قال تعالى ردا عليهم : (الا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون) ذلك ،

١٤ــ (واذا لقوا) اصله لقيوا حذفت الضمة للاستثقال ثم اليا لالتقائها ساكنة مع الواو (الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا) منهم ورجعوا (الى شياطينهم) رؤوسائهم (قالوا انا معكم) في الدين (انما نحن مستهزؤن) بهم باظهار الايمان ،

١٥ــ (الله يستهزئ بهم) يجازيهم باستهزائهم (ويمدهم) يمهلهم (في طغيانهم) يتجاوزهم الحد بالكفر (يعمهون) يترددون تحيرا حال ،

١٦ــ (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) اى استبدلوها به (فما ربحت تجارتهم) اى ماربحوا فيها بل خسروا لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم (وماكانوا مهتدين) فيما فعلوا ،

١٧ــ (مثلهم) صفتهم في نفاقهم (كمثل الذى استوقد) وقد (نارا) في ظلمة (فلما اضاءت) انارت (ماحوله) فابصر واستدفأ وامن ممن يخافه (ذهب الله بنورهم) اطفأه وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى (وتركهم في ظلمات لايبصرون) ماحولهم متحيرين عن الطريق خائفين وكذلك هؤلاء آمنوا باظهر اركلمة الايمان فاذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب ،

١٨ــ هم (صم) عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول (بكم) خرس عن الخير فلا يقولونه (عمي) عن طريق الهدى فلا يرونه (فهم لا يرجعون عن الضلالة) .

١٩ــ (او) مثلهم (كصيب) اى كاصحاب مطر واصله صيوب يصوب اى ينزل من السماء السحاب (فيه) اى السحاب (ظلمات) متكاثفة (ورعد) هو صوت السحاب (وبرق) لمعان السحاب (يجعلون) اى اصحاب الصيب (اصابعهم في اذانهم) اطبقهم من اجل (الصواعق) شدة صوت الرعد لئلا يسمعوها (حذر) خوف (الموت) من سماعها . كذلك هؤلاء . اذا نزل القرآن وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات والوعد عليه مشبه بالرعد والحجج البينة المشبهة بالبرق يسدون اذانهم لئلا يسمعوه ويسبلوا الى الايمان وترك دينهم وهو حذرهم موت (والله محيط بالكافرين) علما وقدرة فلا يفوتونه .

٢٠ــ (يكاد) يقرب (البرق) يخطف ابصارهم يأخذها بسرعة (كلما اضاء لهم مشوا فيه) اى ضوئه (واذا اظلم عليهم قاموا) وقفوا تمثيل لازعاج ما في القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم لما سمعوا فيه مما يحبون ووقوفهم عما يكرهون (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بمعنى اسماعهم (وابصارهم) الظاهرة كما ذهب بالباطنة (ان الله على كل شيء) شاء (قدير) ومنه اذهاب ما ذكر .

٢١ــ (يا ايها الناس) اى اهل مكة (اعبدوا) وحدوا (ربكم الذى خلقكم) انشأكم ولم تكونوا شيئا (و) خلق (الذين من قبلكم لعلكم تتقون) بعبادته عقابه ، ولعل : في الاصل للترجي وفي كلامه تعالى للتحقيق .

٢٢ــ (الذى جعل) خلق (لكم الارض فراشا) حال بساطا يفترش لاقامة في الصلاة او البنة فلا يمكن الاستقرار عليها (والسماء بناء) سقفا (وانزل من السماء ماء فاخرج به من) انواع (الثمرات رزقا لكم) تأكلونه وتعلفون به دوابكم (فلا تجعلوا لله اندادا . شركاء في العبادة (وانتم تعلمون) انه الخالق ولا تخلقون ولا يكون الها الا من يخلق .

٢٣ــ (وان كنتم في ريب) شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد من القرآن انه من عند الله (فاتوا بسورة مثله) اى النزل ومن البيان اى هي مثله في البلاغة وحسن النظم والاخبار عن الغيب . والسورة قطعة لها اول واخر اقلها ثلاث ايات (وادعوا شهداءكم الهتكم التي تعبدونها) (من دون الله) اى غيره لتعينكم (ان كنتم صادقين) في ان محمدا قاله من عند نفسه فافعلوا ذلك فانكم عربيون فصحاء مثله .

٢٤ــ (فان لم تفعلوا) ماذكر لعجزكم (ولن تفعلوا) ذلك ابدا لظهور اعجازه اعتراض (فاتقوا) بالايمان بالله وانه ليس من كلام البشر (النار التي وقودها الناس والحجارة) الكفار كاصنامهم منها يعني انها مفرطة الحرارة تتقيد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقيد بالحطب ونحوه (اعدت) هيئت (للكافرين) يعذبون بها جملة مستانفة او حال لازمة .

٢٥ــ (وبشر) اخبر (الذين آمنوا) صدقوا بالله (وعملوا الصالحات) من الفروض والنوافل (ان) اى بان (لهم جنات) حدائق ذات شجر ومساكن (تجري من تحتها) اى تحت اشجارها وقصورها (الانهار) اى المياه والنهر الموضع الذى يجرى فيه الماء لان الماء ينهر اى يحفره واسناد الجرى اليه مجاز (كلما رزقوا منها من ثمرة) اطعموا من تلك الجنات (رزقا قالوا هذا الذى) اى مثل ما (رزقنا من قبل) اى قبله في الجنة لتشابه ثمارها ، قرينة (واتوا به) اى جيئوا بالرزق (متشابها) يشبه بعضه بعضا لونا ويختلف طعما (ولهم فيها ازواج) من الحور وغيرها (مطهرة) من الحيض وكل قذر (وهم فيها خالدون) ماكثون ابدا لايفنون ولا يخرجون ، ونزل ردا لقول اليهود لما ضرب الله المثل (بالذباب في قوله : وان يسلبهم الذباب شيئا ، والعنكبوت في قوله (كمثل العنكبوت) ما اراد الله بذكر هذه الاشياء الخسيسة فانزل الله :

٢٦ــ (ان الله لايستحي ان يضرب) يجعل (مثلا) مفعول اول (ما) نكرة موصوفة بما بعدها مفعول ثان اى مثل كان او زائدة لتاكيد الخسة فما بعدها المفعول الثاني (بعوضة) مفرد البعوض وهو صغار البق (فما فوقها) اى اكبر منها اى لايترك بيانه لما فيه من الحكم (فاما الذين آمنوا فيعلمون انه) اى المثل (الحق) الثابت الواقع موقعه (من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا) تمييز اى بهذا المثل . وما استفهام انكار مبتدأ وذا بمعنى الذى صلته خبره ، اى : اى فائدة فيه قال تعالى في جوابهم (يضل به) اى بهذا المثل (كثيرا) عن الحق لكفرهم به (ويهدى به كثيرا) من المؤمنين لتصديقهم به (وما يضل به الا الفاسقين) الخارجين عن طاعته .

٢٧ــ (الذين) نعت (ينقضون عهد الله) ماعهده اليهم في الكتب من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (من بعد ميثاقه) . توكيده عليهم (ويقطعون ما امر الله به ان يوصل) من الايمان بالنبي والرحم وغير ذلك وان بدل من ضمير به (ويفسدون في الارض) بالمعاصي والتعويق عن الايمان (اولئك) الموصوفون بما ذكر (هم الخاسرون) لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم .

٢٨- (كيف تكفرون) يا اهل مكة (بالله) وقد (كنتم امواتا) نطفا في الاصـــلاب (فاحياكم) في الارحام والدنيا بنفخ الروح فيكم والاستفهام للتعجب من كفرهم مع قيام البرهان او للتوبيخ (ثم اليه ترجعون) تردون بعد الهمث فيجازيكـم باعمالكم • وقال دليلا على البعث لما انكروه •

٢٩- (هو الذى خلق لكم ما في الارض) اى الارض ومافيها (جميعا) لتنتفعوا بـــه وتعتبروا (ثم استوى) بعد خلق الارض اى قصد (الى السماء فسواهن) الضمير يرجع الى السماء لانها في معنى الجمع الايلة اليه اى صيرها كما في اية اخـــرى فقضاهن (سبع سموات وهو بكل شيء عليم) مجملا ومفصلا افلا تعتبرون ان القادر على خلق ذلك ابتداء وهو اعظم منكم قادر على اعادتكم •

٣٠- (و) اذكر يامحمد (اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) يخلفني في تنفيذ احكامي فيها وهو ادم (قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصي (ويسفك الدماء) يريقها بالقتل كما فعل بنوا الجان وكانوا فيها فلما افســـدوا ارسل الله عليهم الملائكة فطردوهم الى الجزائر والجبال (ونحن نسبح) متلبسين (بحمدك) اى نقول سبحان الله وبحمده (ونقدس لك) ننزهك عما لايليق بـــك فاللام زائدة والجملة حال اى فنحن احق بالاستخلاف (قال) تعالى (اني اعلم مالا تعلمون) من المصلحة في استخلاف ادم وان ذريته فيهم المطيع والعاصي يظهر العدل بينهم فقالوا ان يخلق ربنا خلقا اكرم عليه منا ولا اعلم لسبقنا لـــه ورؤيتنا مالم يره فخلق الله تعالى ادم من اديم الارض اى وجهها بان قبض منها قبضة من جميع الوانها وجبلت بالمياه المختلفة وسواه ونفخ فيه الـــروح فصار حيوانا حساسا بعد ان كان جمـــادا •

الحديث النبـــــوي

الحديث : كل قول او فعل او تقرير نسبب الى النبي (ص) ، اما من حيث اللغـــة فهو اسم من التحديث اى الاخبار ، ومن هنا كان العرب في الجاهلية يطلقون على اياميهم (اى وقائعهم) اسم الاحاديث ، ويقال صار احدوثة اذا ضرب به المثل ، وهكـــذا نجد ان لفظ الحديث يتضمن معنى الاخبار ، وقد ورد في القرآن الكريم نفسه بهـــذا المعنى ، ففي قوله تعالى ((فليأتوا بحديث مثله)) وقوله تعالى وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) يلاحظ ان المقصود بالحديث هو الخبر.

والنبي نفسه سمى قوله حديثا ، وكان ذلك في جواب له على ابي هريرة حيـن سأله عن اسعد الناس بشفاعته يوم القيامه ، فقال النبي (ص) : (انه علم ان لن يسأله عـــن هذا الحديث احد قبل ابي هريرة لحرصه على طلب الحديث[1]).

اما السنة فانها تعني الطريقة ، وكانت تطلق على الطريقـة التي سلكهـا النبي في حياته ، وقد سميت المدينة بدار السنة لان هذا المفهوم قد بدأ هنالك وقد اريـد بالسنة تقنين البدعة التي هي مرادفة للحديث وهو الخروج على الجماعة وخلع الطاعة .

ومن مرادفات الحديث الخبر وقد ذكرنا من قبـل ان التحديث يعني الاخبار وبأ حديث النبي (ص) الا الخبر المرفوع اليه .

والاثر كذلك من مرادفات الحديث فيقال : اثرت الحديث بمعنى رويته ويسمى المحـدث اثريا نسبة الى الاثر ، نجد ان هذه المصطلحات الحديث والاثر والخبر تتساوى فيما بينها في افادة التحديث والاخبار ، وان كـان هنالك من يجعل بينها بعض الفروق .

الحديث القدســـي

هنالك احاديث نبوية ليست وحيا منزلا فتسمى قرآنا ، ولا قولا صريحا يسنده النبـي الى نفسه فيسمى حديثا عاديا ، ولكنها احاديث كان يصدرها الرسـول بعبارة تدل علـى نسبتها الى الله كلي يشير الى من عنده فيها ~~وكلامه من الله~~ باسلوب يختلـف اختلافا ظاهرا عن اسلوب القـرآن ، ولكن فيه مع ذلـك وحيا من الله تلك هي الاحاديـث القدسية ، مثالها : ما اخرجه مسلم في صحيحه عن ابي ذر الغفاري عن النبي فيما يرويـه عن الله عز وجل (ياعبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي كلكم جائـع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم ، ياعبادي انكم تخطئون بالليل والنهار ـ وانا اغفـر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم .....))

---

[1] صحيح البخاري ٨/ ١١٧ (المطبعة الخيرية مصر ١٩٢٠) .

والصيغة التي تصدروا بها مثل هذه الاحاديث عادة (قال النبي فيما رواه عن ربه) او (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله (ص)) ومضمون العبارتين واحد وان اختلفا في الاصطلاح .

وحكاية النبي (ص) عن ربه في هذا الضرب من الاحاديث القدسية اتخذت حجة للعلماء القائلين : ان اللفظ في الحديث القدسي من الله عزوجل ، غير ان كثيراً من العلماء يرون أن الصياغة للنبي وأن المعنى لله ، وهكذا فان فيصل التفرقة بين القرآن والحديث القدسي هو ان القرآن ماكان لفظه من عند الله بوحي جلي ، اما الحديث القدسي فهو ماكان لفظه من عند الرسول ، ومعناه من عند الله) .

تدوين الحديث

حين ظهر الاسلام لم يكن الا عدد يسير من الرجال يعرفون القراءة والكتابة وورد في بعض الاخبار انهم كانوا سبعة عشر رجلا ، وسواء صح هذا العدد ام لم يصح فان الامية كانت منتشرة في انحاء الجزيرة العربية كما كانت البداوة غالبة هنالك ، مع أن عدد الكاتبين في مكة كان اكثر منه في المدينة وآية ذلك ان رسول الله قد اذن لاسرى موقعة بدر ان يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة فانتشرت المعرفة حتى بلغ عدد كتاب الوحي اربعين رجلا قبل الهجرة ثم اخذ هذا العدد يزداد وتحولت المساجد الى مدارس لنشر العلم .

واذا كان الرسول قد عني بتدوين القرآن الكريم ، فان احاديث الرسول كان المعول في حفظها على الصدور دون الكتابة والسبب الرئيسي في ذلك الحفاظ على القرآن من أن يناله التغيير والتبديل ، اما الحديث فقد كان الاهتمام به بالدرجة الثانية بعد القرآن ، كما ان خشية الرسول ان يلتبس القرآن بالحديث دفعه الى أن يوصي المسلمين قائلا لهم (لاتكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولاحرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) .

ولكن حين اوشك الوحي على النهاية والقرآن على التمام ، وحفظه عدد كبير من المسلمين ولم يعد ثمة خشية من الالتباس بين الايات والاحاديث عندئذ اذن النبي للمسلمين ان يدونوا الحديث قائلا لهم (قيدوا العلم بالكتاب) وكان خطابه هذا موجها الى عدد يسير من اصحابه ممن يتوسم فيهم الكفاءة والثقة على تدوين تلك الاحاديث ، وهكذا فان الحديث الثاني الذي يأذن فيه الرسول بتدوين السنة ، يكون بمثابة ناسخ للحديث الاول الذي ينهى فيه عن تدوين السنة .

ومن هنا نجد في السنوات الاخيرة من حياة الرسول عددا من الصحابة يكتبون صحفا تحتوي على ما سمعوه من احاديث نبوية وكان من بين هؤلاء سعد بن عبادة الانصاري الذي ورث ابنه عنه صحيفة الاحاديث ، وسمرة بن جندب كان قد كتب صحيفة تشمل على عدد من الاحاديث ورثها ابنه سليمان ورواها عنه ، وجابر بن عبد الله كتب صحيفة تشمل على الاحاديث المتعلقة بمناسك الحج ، وهناك الصحيفة التي أطلق عليها (الصحيفة الصادقة) وهي التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص وهي محفوظة في مسند الامام احمد ، وهناك صحيفة اخرى سجل فيها الرسول حقوق المهاجرين والانصار واليهود وعرب المدينة .

وقد كتب عبد الله بن عباس كثيرا من احاديث الرسول ، اذ كان يملي عليه تلميذه سعيد بن جبير ، وقد بقيت صحف ابن عباس متداولة بين الناس لمدة طويلة من الزمن .

وقد تلفت الصحف التي جمعها الصحابي ابو هريرة ولم تبق منها الا صحيفة واحدة تلك التي رواها عنه تلميذه همام بن منبه ونسبت اليه وسماها صاحب كشف الظنون (الصحيفة الصحيحة) وهي تشتمل على ١٣٨ حديثا .

عمر بن عبد العزيز وتدوين الحديث /

لقد امر الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز بصورة رسمية ان يدون الحديث ولعله قد استشار عددا من العلماء المعاصرين له قبل الاقدام على اصدار امره ، ويبدو ان الدوافع التي دفعت المسلمين الاوائل لجمع القرآن وتدوينه هي التي دفعته الى تدوين الحديث وذلك خوفه من دروس العلم وذهاب اهله فخير وسيلة لحفظه والابقاء عليه هو التدوين وقد كتب الى عامله في المدينة محمد بن عمرو بن حزم يأمره (انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) او سنة ماضية او حديث عمر فاكتبه فاني قد خفت دروس العلم وذهاب اهله) .

وعمرة هذه من الانصار كانت تروي طائفة كبيرة من الاحاديث ولم يكتف عمر بذلك بل كتب الى عماله في سائر الامصار كما كتب الى ابن حزم وكان اول هؤلاء العمال استجابة لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المدني الذي انجز عمله في تدوين الاحاديث بدقة وسرعة فائقة مكنته من ان يقول (لم يدون هذا العلم احد قبل تدويني) ولكنه من جهة اخرى كانت تساوره الشكوك في جواز تدوين الاحاديث ، وقد تردد في تدوينها ، كما تردد من قبله زيد بن ثابت في تدوين القرآن ، لا سيما وانه رأى احجاما عند اكثر المسلمين عن تدوين

الاحاديث منذ وفاة الرسول حتى عهده ، ولكنه كان يشعر بالحاجة الى التدوين وبضرورة أن يصدع بامر الخليفة وفي ذلك يقول الزهري (كنا نكره كتاب العلم حتى اكرهنا عليه هؤلاء الامراء فرأينا الا نمنعه احدا من المسلمين) ولعل من اول البواعث التي دفعت الخليفة عمر على طلب التدوين هذا ظهور احاديث موضوعة كثيرة وقد خشي أن تختلط بالاحاديث الصحيحة ويلتبس على الناس امرها ، وهكذا يكون الخوف على احاديث الرسول من الضياع اولا وخشية التباس الاحاديث الصحيحة بالموضوعة ، العاملين الرئيسيين في الاقدام على تدوين الحديث .

وهكذا بدأ تدوين الحديث ينتشر ، واخذ الناس يتناولونه ، وكانت الاحاديث ممزوجة بفتاوى الصحابة والتابعين كما هي الحالة في موطأ الامام مالك وعلى رأس المائتين بدأ العلماء يؤلفون المسانيد مقصورة على السنة النبوية دون الفتاوى وكان اول هؤلاء ابو داود الطيالسي ، وفي عهد اتباع التابعين ثبتت السنة على الابواب وكان ذلك في عصر البخاري ، وفي هذا العصر ألفت الكتب الصحيحة وهي (البخاري ومسلم والترمذي وابن داود وابن ماجة والنسائي) .

وفي العصور اللاحقة بعد عصر الرواية اخذ العلماء على انفسهم تهذيب وشرح واختصار الكتب الصحيحة المشهورة ، وكان من بينهم ابوعبد الله الحميدي (— ٤٨٨ هـ) الذي جمع الصحيحين على ترتيب المسانيد وابن الاثير (— ٦٠٦) الذي رتب ابواب الكتب الستة واخيرا السيوطي (— ٩١١) الذي جمع الكتب الستة والمسانيد العشرة وغيرها من المصنفات في علم الحديث وجمعها في جمع الجوامع المسمى (بالجامع الكبير) وهكذا استمر تدوين الحديث بمراحل متعددة حتى عصرنا الحاضر .

الرحلة في طلب الحديث

نشأ الحديث في المدينة المنورة ، حيث كان الصحابة الاوائل يتدارسونه ويتناقلونه ومن هنا سميت (بدار السنة) .

وحين اخذ الاسلام ينتشر في مناطق بعيدة عن المدينة اصبح الكثيرون من طلاب العلم يتجهون اليها ليسمعوا من علمائها الثقات الضابطين لاحاديث الرسول فشاعت وانتشرت تلك الاحاديث في بلدان أخرى غير المدينة حتى ان بعضها تفرد برواية بعض الاحاديث فهناك ما تفرد به اهل البصرة واهل مصر وغيرهم وكان قبول اهل أحد الامصار لحديث من الاحاديث يعد توثيقا لصاحبه وتعديلا واقد بدأ الناس منذ القرن الاول يرحلون في طلب العلم ويلقي الحديث مسافة وقد يقطع الواحد منهم مسافات شاسعة ويقضي اياما وليالي متعددة في طلب حديث واحد وبهذا الصدد يقول سعيد بن المسيب (اني كنت لارحل الايام والليالي في طلب الحديث الواحد) وقصة مكحول الذي طاف بمصر

والحجاز والشام والعراق يسأل عن النفر حتى سمع حبيب بن مسلمة يقول شهدت النبي (ص) نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة وهناك موسى بن احمد الجواليقي الملقب بعبدان اختلف الى البصرة ثماني عشرة مرة يسمع ما يرويه اهل هذا البلد من الاحاديث التي تفرد بها ايوب احد الرواة •

وكان من هؤلاء الذين يرتحلون في طلب العلم من يمشي على قدميه ومن يرتحل راكبا بن خمس عشرة سنة او بن عشرين ويوصف بعضهم بان له رحلة واسعة او اكثر الرحال او انه بقي في الرحلة بضع عشرة سنة ، وكان لقب الرحال والرحالة وفقا على امثال هؤلاء المحدثين ممن طافوا في الافاق وتحملوا مشاق السفر طلبا للاحاديث •

نتائج الرحلة في طلب الحديث ،

وقد كان لمثل هذه الرحلات اثرها الواضح في توحيد النصوص والتشريعات حيث تتماثل النصوص والتشريعات وان كانت مختلفة المصادر وكلما مر الزمن وازدادت الرحلات كلما تقاربت النصوص حتى تبدو وكانها من رواية مصر واحد ، ومن امثلة ذلك الحديث المشهور (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) فقد افتتح الكثيرون من علماء الحديث كتبهم بهذا الحديث حتى يبدو كأن شرط التواتر متوافر فيه ، اى رواية الجمع الكثير عن الجمع الكثير ، مع انه في الواقع قد انفرد به علقمة عن رسول الله وعنه رواه عمر وقد استفاض وانتشر فيما بعد في سائر الامصار بصيغته المشهورة كل ذلك بسبب اولئك الذين يرحلون في طلب الحديث •

والنتيجة للرحلة في طلب الحديث كانت توحيد التشريع والاعتقاد ومن امثلة ذلك ان الحديث الذى اشرنا اليه والمتعلق بالنيات قد استنبط منه العلماء في ارجاء العالم الاسلامي كثيرا من المسائل الفقهية فيما يتعلق بالضمير الانساني والتعويل على القلوب والسرائر لا على المظاهر والاعمال •

وقد اخذ العلماء يتشددون في معرفة الاسانيد التي يذكرها اصحاب الرحلات من رواة الحديث ، لاهمية تلك الاحاديث في الشريعة والاعتقاد ، فلا يقبلون الاحاديث الا ممن يوثق بروايتهم ، ومع ان الكتب قد صنفت فيما بعد الا انها لم تغن عن الرحلة في طلب الحديث ، لان العالم يريد ان يتثبت من صحة ما يرويه عن الثقات الضابطين •

اغراض اخرى لطلب الحديث •

واذا كان اولئك العلماء الذين يتجشمون المصاعب ويقاسون اهوال السفر في طلب الحديث رغبة في العلم وسعيا وراء المعرفة ، فقد كان هنالك نفر استغلوا الاحاديث لجمع المال وكان منهم ابن ذكيس القرشي الذي كان يعلم الناس الحديث لقاء الدراهم التي يتقاضاها منهم ومع ذلك فقد كان حافظا ثقة على ان الدعوة الى نشر العلم مجانا هي التي كانت سائدة ، اما اولئك الذين يتقاضون المال لقاء تعليمهم الحديث فقد كان الناس ينعون عليهم اسلوبهم هذا وكان ظاهرة اخرى ظهرت فيما بعد حين اخذ بعض الرجال في القرون المتاخرة يرحلون لرواية الحديث طلبا للشهرة ولتظهر اسماؤهم في سلسلة الاسناد لاحيا في المعرفة وهذه الصفة تتنافى مع اخلاق العلماء •

وظهرت طائفة اخرى من العلماء لاتقل خطرا عن هؤلاء كان همها جمع الاحاديث دون نقد او تمحيص فيكثرون من الغريب الذي يعجب العوام ويستهويهم طلبا للشهرة بينهم •

وهكذا اصبح رواة الغريب من الاحاديث موضع شك واتهام من العلماء فيحذرونهم ويفرون منهم ويرفضون تحمل احاديثهم ، وقد قيل لشعبة بن الحجاج : مالك لاتروي عن عبد الملك بن ابي سليمان وهو حسن الحديث ؟ فقال من حسنها فررت وكثيرا مايقع التدليس في هذا الضرب عن غريب الحديث ، ومصداق ذلك قول الامام ابي حنيفة (من طلب غريب الحديث كذب) •

والمدلس كثيرا مايحدث عن رجل يدعي سماعه وهو لم يدركه او يختلق اسماء اشخاص واماكن لايعرف عنها او ينسب للمروي عنه صفات ليست فيه •

ومهما يكن من امر فقد ظهر الكثيرون من الرجال الذين وهبوا انفسهم للعلم وكان هدفهم الاول الوصول الى الحقيقة والصواب ، وظهر اخرون غيرهم من استهواهم حطام الدنيا وحب الشهرة •

انـــواع الحديـــــــث

لقد ذكرنا من قبل ان الرسول قد نهى عن تدوين الاحاديث في بداية الدعوى الاسلامية لئلا يختلط بالقرآن ، ومن ناحية اخرى فقد اتخذ كتابا للوحي يكتبون آيـة آيـة عند نزولها .

واذا كانت هنالـك بعض الاحاديث قد كتبت في عهد الرسول فانها قليلة العـــدد ، كما ان الذين كتبوا الاحاديث عن الرسول بعد ان سمح لهم كان عددهم قليلا ايضا .

وهكذا ظـل الناس — في الغالب — يروون الاحاديث على الذاكرة طوال حياة الرسول بعد البعثـة التي امتدت اكثر من عشرين عاما وكذلـك الفترة التي اعقبتها حتى ظهـــور فيما بعد عدد غير قليل من الاحاديث الموضوعة او المشتبه في صحـة نسبتها الى الرســول (ص) وكانت هنالـك اسباب مختلفـة لهذا الوضـع .

وقد انتبه عدد من العلماء الى هذا العدد الكبير من الاحاديث التي يتداولهـــا الناس حتى بلغت مئات الالاف — فنهضوا لتمييز الجيد من الرديء منها ، وبيان الصحيـح من الموضوع او الضعيف ، وقد اتخذوا لذلـك سبلا مختلفـة منها انهم طالبوا باسناد الحديث ، اي تعيين الرواة ، فيقول المحدث : حدثني فلان عن فلان عن رسول الله ليتمكنوا بذلـــك من معرفـة قيمة الحديث صدقا او كذبا ، ثم اخذوا يشرحون اولئـك الرواة فيجرحون بعضهم ، ويعدلون البعض الاخر ، كذلـك قسـموا الحديث بحسب قوته والاخذ به الى اقســـــام وجعلوا لكل قسم منها اسما يدل على مكانته من الصحة او الضعف ، وقد بلغت تلك الاقسـام خمسة وستين في نظر السيوطي والنووي وجـاوزت المائة في نظر الحازمي كما اشار اليـــه في كتابه (العجالة) .

ولكن فريقا من العلماء اثر تقسيمها الى اقسام ثلاثة هي :

الصحيح والحسن والضعيف ، ولكل منها انواع متعددة ، كما ان هناك انواعا اخرى مشتركـــة لكل منها خصائصها وميزاتها التي تبين مدى صحتها او ضعفها .

ولنبدأ بالنوع الاول منها :

١ — الحديث الصحيح :

واول هذه الانواع الحديث الصحيح الذي عرفه العلماء بانه :—

(الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله حتى منتهاه وسلم من الشـــذوذ والعلـــة) .

وهنا يجب ان نلاحظ انه يراد بالمتصل ذلك الحديث الذى لم يكن مقطوعا باى وجه من الوجوه وبالعدل من لم يكن مستور العدالة ولا مجروحا كأن يكون الشخص مجهولا او معروفا بالضعف ، ويراد بالضابط من كان حافظا متيقظا وعكسه المغفل كثير الخطأ ويراد بالشذوذ مايرويه الثقة مخالفا لرواية الثقات ، وبالعلة مافيه اسباب خفية قادحة ، والحديث الصحيح ينقسم الى قسمين :

١ـ الصحيح لذاته ـ هو الحديث الذى سبق تعريفه لكونه اشتمل من صفات القبول على اعلاها .

٢ـ الصحيح لغيره ـ هو ما صح لامراجئ عنه ، اذ لم يشتمل من صفات القبول على اعلاها ، كالحسن ، فانه اذا روى من غيروجه ارتقى بما عضده من درجة الحسن الى منزلة الصحة ، وكذلك ما اعتضد يتلقي العلماء له بالقبول .

واول من عنى بجمع الصحيح من الاحاديث : ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وتلاه صاحبه وتلميذه ابوالحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، ويرجح صحيح البخارى على صحيح مسلم لانه اشترط في كتابه ان يكون الراوى قد عاصر شيخه وثبت سماعه عنه ولم يشترط مسلم الشرط الثاني بل اكتفى بالشرط الاول وهو المعاصرة . ويبلغ عدد الاحاديث في صحيح البخارى مع المكرر منها نحوا من سبعة الاف ويغير المكرر نحوا من اربعة الاف وجميع مافي صحيح مسلم بلا تكرار نحو اربعة الاف حديث .

وكما يوصف بانه مسند ومتصل ، كذلك يوصف بانه متواتر واحادى وبانه غريب او مشهور ، وهذا تعريف كل منها :

فالمتواتر ـ (هو الحديث الذى يرويه جمع عن جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب ، في اول السند ووسطه واخره) . ولم يتفق على تحديد هذا الجمع فمنهم من يذهب الى ان العدد الاقل له هو اربعة ، ويذهب الاخرون الى القول انه اكثر حتى يصل بعضهم الى ان يكون العدد مايزيد على الثلثمائة ، ومن هنا يكون الارجح عدم تحديد العدد ، وفي ذلك يقول ابن حجر (لامعنى لتحديد العدد على الصحيح) .

وينقسم المتواتر الى : لفظي ومعنوى .

فالمتواتر اللفظي ـ هو الذى رواه الجمع المذكور في اول السند ووسطه واخره بلفظ واحد وصورة واحدة ، وهذا النوع عزيز جدا ، بل لايكاد يوجد على راى ابن الصلاح .

اما المتواتر المعنوى ـ فمن الواضح انه لايشترط في روايته المطابقة اللفظية وانما يكتفي باداء المعنى ، ولو اختلفت رواياته عن الجمع الذين يحيل العقل والعادة تواطأهم على الكذب وهو كثير جدا مثاله احاديث رفع اليدين بالدعاء وهي اكثر من مائة حديث ، في قضايا مختلفة ، كان القدر المشترك فيها رفع اليدين بالدعاء ، اما الحديث

الاحادي فهو خبر الواحد العدل عن مثله الى رسول الله وهناك نوع من الحديث يسمى غريبا اذا تفرد بروايته واحد ثقة وتكون غرابته في المتن تارة ، وفي الاسناد اخرى ، كأن تكون زيادة في المتن او الاسناد .

ويسمى الحديث مشهورا اذا اشتركت جماعة في روايته عن الشيخ الثقة ، والاحاديث الصحيحة ليست على درجة واحدة من الصحة ، بل تتفاوت في درجات مختلفة .

١ـ اعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم .
٢ـ ثم ما انفرد به البخاري .
٣ـ ثم ما انفرد به مسلم .
٤ـ ثم ماكان على شرطهما وان لم يخرجاه .
٥ـ ثم ماكان على شرط البخاري .
٦ـ ثم ماكان على شرط مسلم .
٧ـ ثم ما صححه غيرهما من الائمة .

وكذلك تتفاوت رتب الحديث بتفاوت الامصار التي روى فيها ويكاد العلماء ان يجزموا بان اصح الاحاديث ماروى عن اهل المدينة ، وفي راى الخطيب البغدادي (ان اصح طرق السنن مايرويه اهل الحرمين مكة والمدينة ، فان التدليس عنهم قليل والكذب ووضع الحديث عندهم عزيز ، ولاهل اليمن روايات جيدة وطرق صحيحة الا انها قليلة ومرجعها الى اهل الحجاز ايضا) .

٢ـ الحديث الحسن

هو ما اتصل سنده بنقل عدل خفيف الضبط وسلم من الشذوذ والعلة . وهنا يلاحظ لاجل التمييز بين الحديث الصحيح والحسن ان الراوي العدل في الحسن خفيف الضبط بينما هو في الصحيح تام الضبط .

والحديث الحسن ينقسم الى قسمين : ١ـ الحسن لذاته . ٢ـ الحسن لغيره .

فالحديث الحسن لذاته هو الحديث الذي سبق التعريف به اما الحسن لغيره فهو ما في اسناده مستور لم تتحقق اهليته ولاعدم اهليته غير انه ليس مغفلا كثير الخطأ ولا متهما بالكذب ، ويكون متنه معضدا بمتابع او شاهد (اي اعتضاده برواية اخرى مماثلة تتابع لفظه او تشهد لمعناه ليصح به الحكم للاعتبار .

ضعفه بسبب تفاوت ضعف رواته ، لذلك كان الحديث الضعيف انواعا وعلى درجات ، وقد ذكر بعضهم له اثنين واربعين صورة ، وزاد البعض الاخر على ذلك ، ونلاحظ ان سبب اعتبار الحديث ضعيفا هو ضعف رواته ، وقد تسأل النقاد عما اذا كان يجوز تجريح الرواة ونقدهم ، فقال الامام النووي في ذلك (ان جرح الرواة جائز بل واجب بالاتفاق . وهو ليس من الغيبة المحرمة بل من النصيحة لله تعالى ولرسوله) ومعلوم سنا ان تجريح الرواة يعني نقدهم واستقصاء معايبهم كالتغفلة والجهل وما الى ذلك ، واستشهد مسلم النيسابوري بقوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

واذا كان بعض الائمة قد استشهد بالاحاديث الضعيفة فليس الغرض الاخذ بتلك الاحاديث وانما لبيان ضعفها او ليستشهدوا بها للاعتضاد مع احاديث اخرى ، او لتمييز درجات ضعفها ، وتسأل العلماء عن امكانية الاخذ بالحديث الضعيف فنقل السيوطي انه يشترط في قبوله (كونه من الفضائل ونحوها) وقارب الزركشي ذلك بقوله الضعيف